

أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي



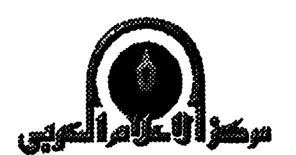
محمد جلاء إدريس
أستاذ الدراسات الإسرائيلية



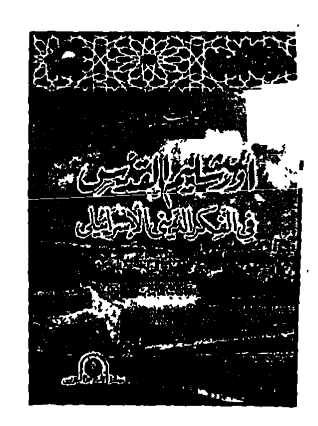
د : محمد جلاء إدريس

أورشليم القدس

فى الفكر الدينى الإسرائيلى



سلسلة كتاب
القدس (٤)



الطبعة الأولى
أبريل ٢٠٠١م

● الكتاب :أورشليم القدس فى الفكر الدينى الإسرائيلى
● المؤلف : د. محمد جلاء إدريس
● السلسلة : كتاب القدس
● قياس الصفحة : ٢٠×١٤
● رقم الإيداع: ٤١٧٣ /٢٠٠١
● الترقيم الدولي: ٥-٥٧-٥٢٧٤-٩٧٧

مركز الإعلام العربي:
ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
● هاتف : ٣٨٣٣٣٦١ / ٠٠٢٠٢
● فاكس : ٣٨٥١٧٥١ / ٠٠٢٠٢
● البريد الإليكتروني:
E .Mail: media- c@ie - eg. com
Home Page: www. Resalah4u.com.



مقدمـــــة

يحتاج التاريخ الإسرائيلى إلى جهد خارق للتحقق والتثبت منه، بعيدًا عن عـواطف ومشـاعـر الحب أو الكراهيـة، جهـد مستـقل عن تأثيـر لمقدسات، وبدون ذلك سيجد الباحث الموضوعى، الساعى وراء الحقيقة، ـفسه فى موقف محير للغاية إزاء آثار هؤلاء القوم المدمرة للفكر والحضارة فى كـثيـر من مراحل التـاريخ، وإزاء مـا يفرضـه الإيمان بموسى (عليـه السلام) ومن سبقه من الأسلاف أو من لحـقه من الأنبياء فى هذا المجتمع من احـترام واعتـبار، قـد يؤثران على رؤية الحـقائق ومـواجهة الوقـائع بشجاعة وحيدة ونزاهة.

ولقد كنت أنبه دائمًـا عند الحديث عن أنبياء بنى إسرائيل إلى التـفرقة الفاصلة الحـاسمة بين مـوقف الإسلام من هؤلاء الأنبـياء - ذلك الموقف المكرم لهم، المعـتـرف بنبـوتهم وفـضلهم، المنـزه لهم عن كل النقـائص والمثالب - وبين موقف العهد القديم، كتاب اليهود المقدس، الذى يتراوح بين إنصـافهـم وتشويهـهم، بين الإيمـان بهم ونكرانهم، بين الإيجـاب والسلب.

الموقف الإسلامى واضح، وله جانب واحد مضىء.

الموقف الإسرائيلى اليهودى متناقض متباين.

ولما كان العـرب المسلمون هم الفريق المؤمن بسـائر الأنبياء قبل نبـيهم إيمانًا يضع كل نبى منهم فى مكانته اللائقة، ويعترف بدوره التاريخى.

ولما كان العرب المسلمون - كذلك - هم المستعمرون لجزء عزيز من وطنهم وأرضهم.

ولما كان العرب المسلمون هم المكتوون بنيران التحالف اليهودى - الغربى الاستعمارى.

ولما كان العرب المسلمون يملكون من أدوات البحث العلمى ما لا يملكه الآخرون من لغة وتاريخ وإيمان صحيح لمفهوم الوحى وتنزيه للإله وتوحيد له.

كان العرب المسلمون هم المرشحون الآن لتولى مهمة التمحيص التاريخى لليهود، بعد أن قام غيرهم على مدى سنين طوال بهذه المهمة وفقدوا فيها الحياد والنزاهة.

وينبغى أن نضع فى الاعتبار أن العرب وقلة من اليهود المعاصرين هما الشعبان الساميان الوحيدان اللذان قاوما أحداث الزمن إلى يومنا هذا، بعد أن استوعبت العروبة أممًا وشعوبًا مختلفة على مدى التاريخ: البابليين والأشوريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين... إلخ، وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام اليهود الذين يدركون جيدًا فلسفة التاريخ، وأن التعايش العربى - اليهودى، لابد وأن ينتهى حتمًا إلى ذوبان طرف فى الآخر، وأن هذا الطرف الذى يتهدده الذوبان هو طرفهم.

إن ساسة الصهيونية وقادتها، عندما يتحدثون عن حدود آمنة، لا يقصدون حدودًا جغرافية على نحو ما تطلب سائر الشعوب، بقدر ما يهدفون إلى حدود حضارية وديموجرافية بمعنى أنه ينبغى - فى اعتقادهم - أن يخلو الوطن اليهودى المنشود من العرب، والعكس كذلك، إن

مجرد التعايش العربى - اليـهودى يشكل خطرًا على الوجود اليهودى فى حد ذاته، وهذا الزعم هو الذى جعل أحد كبار مفكريهم «أحادهاعام» فى بحث له بعنوان: «ليس هذا هو الطريق» يقول بأن الوطن القومى اليهودى الذى تنشده الصهـيونية الحديثة فى فلسطين، قـد يكون أشد الأمور خطرًا على اليهود أنفسهم، ويؤكد «أحادهاعام» فى بحثه على أن الوطن القومى الآمن لليـهـود هـو وطن فكرى ودينى بحت، وطن يـتكون من التـوراة والتلمود. [1]

ولقد كان للعرب على مر التاريخ دور فى الحفاظ على الوجود اليهودى: المادى والفكرى، ومـا أظن اليـهود أنفـسـهم ينكرون هذا، فـأجداد عـرب فلسطين المعاصرين، كانوا قوة أساسية فى جيش داود (عليه السلام)، بل لم يجد داود ملجـًأ يحتمى فـيه من بأس الملك الإسـرائيلى شاؤول الذى طارده وسعى إلـى قتله بكل وسـيلة، لم يجد ملجـًأ سوى فى أرض الفلسطينـيين وعند ملوكها. (صموئيل الأول ٢٧).

وقد أدرك المؤرخ الإنجليزى جفريز ذلك فقـال: «إن العرب قد أسهموا بالنصيب الأكبر فى إعطاء العرش لسليمان»[2].

وكان للعـرب دورهم فى إعادة اليهود إلى السكنى فى القـدس بعد أن طردهم منها الغازون المستعمرون وحظروا عليهم العيش بها [3].

وكـان لهم كذلك دور فى نـهضـة اللغـة العبـرية، وكـتابة القـوانين

---

(١) حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، ١٩٧١، ص: ١١.

(٢) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص: ٤٤، ٤٥.

(٣) سنعرض لذلك تفصيلاً فى ثنايا الدراسة.

والتشريعات اليهودية فى العصر الذهبى لليهود فى الأندلس.

لقد حان الوقت إذن، للعرب أيضًا، كى يصححوا مجرى التاريخ ومساره بتمحيص علمى، وتفنيد للأساطير التى عششت فى عقول الغرب.

من هذا المنطلق تأتى هذه الدراسة التى تعتمد على النصوص العبرية المقدسة بالدرجة الأولى، والممثلة فى أسفار العهد القديم، كتاب اليهود جميعًا، ونصف كتاب المسيحيين المقدس، لتعالج قضية أورشليم القدس المعقدة أمام العالم، استقراء للتاريخ اليهودى من خلال النصوص اليهودية للوقوف على حقيقة تاريخ المدينة، لنصل فى النهاية إلى قضايا محددة حول المسألة برمتها، ولتوضع أمام كل ساعٍ للحقيقة ومنشد لها.

هل حقًا أسس اليهود أورشليم؟

هل لم يكن للعرب فيها تاريخ وحياة؟

هل كان لليهود فيها وجود يضارع الوجود العربى؟

هل تواصل الوجود اليهودى فى المدينة على نحو ما يتصف الوجود العربى؟

هل كانت أورشليم مقدسة عند اليهود على مر تاريخهم؟

عشرات الأسئلة التى تطرح فى هذا المقام، لابد لها من إجابة تزيل اللبس وتكشف الزيغ وتهدى الحيارى، وترشد «المفاوضين».

هذا هو هدف دراستى، والله من وراء القصد.

* * *

تمهيــد

كانت حياة العبرانيين (فى فلسطين) تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر، لم تكن (مملكتهم) سوى حادث طارئ فى تاريخ مصر وسوريا وأشور وفينيقية، ذلك التاريخ الذى هو أكبر وأعظم من تاريخهم».

هـ. ج. ولز

موجز التاريخ

يرى ميرسيا إلياد - رائد دراسة قداسة الأماكن - أن تبجيل الأماكن المقدسة قد سبق كل تأملات الإنسان فى طبيعة العالم[1]، ولذلك يلاحظ أن قداسة المكان قاسم مشترك بين شتى الثقافات، كما يعد الإيمان بها من أساسيات العقائد الدينية الأولى فى حياة الإنسان، ومن ثم يمكن الحديث عما يسمى بـ«الجغرافيا المقدسة»، هذه الجغرافيا التى أثرت، وما زالت

(١) Mircea Eliade, The Sacred and the Profane, trans. Willard J., Trask, New York, 1959, P. 21.

نقلاً عن: كارين آرمسترونج، القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد عنانى، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ٢٩.

تؤثر، فى تاريخ القدس.

وليس ثمة مبررات مادية بحتة لتبرير قداسة مكان بعينه، إذ إن هذا التقديس يرتبط بمفهوم المرء لذاته ارتباطًا وثيقًا، فقد يرتبط الإنسان بمكان ما لتجربة أو خبرة عميقة أعادت تشكيل حياته، أو بذكريات الطفولة، أو بشخص كان يمثل له أهمية خاصة، فإذا ما وقف هذا الإنسان عند هذا المكان، استرجع إحساسه بعمق الحياة التى عاشها فيه، ذلك الإحساس الذى يجعل للوجود الأرضى معنى وقيمة.

من هذا المنطلق، تتحقق «لأورشليم القدس» قداسة قلما حظيت بها مدينة على وجه الأرض، إذ تهفو إليها نفوس أتباع أكبر ثلاثة أديان وأكثرها انتشارًا فى العالم، وإن كنا نفتقر إلى أى معلومات مباشرة عن الحياة بعامة، والحياة الدينية على وجه الخصوص فى هذه المدينة قبل القرن الثامن عشر ق.م، بل لم يكتشف حتى الآن ما يشير إلى تفاصيل الحياة فيها حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولا تشير نصوص العهد القديم إلا إشارة عابرة ترجع إلى زمن إبراهيم (عليه السلام) (القرن ١٨ ق.م تقريبًا) تفيد عبادة ملكها وحاكمها «ملكى صادق» لله العلى، وكيف أنه بارك إبراهيم ودعا له (التكوين: ١٨/١٤ - ١٩)

واستعراض تاريخ أورشليم القدس يوحى بتلاقح ثقافى حضارى عنصرى، عكسته عبارة سفر حزقيال:

«قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أمورى وأمك حثية» (٣/١٦).

وشاءت الأقدار أن يستمر هذا التلاقح، ويلازم تاريخ المدينة التى

شهدت فى جميع مراحله تعايشًا متعدد الأعراق والمشارب.

تلك حقيقة تاريـخية تؤكدها المكتشفات، ويعترف بـها العهد القديم، لكنها حـقيقة غـير مقبـولة من إله إسرائيل الذى يعتمـد سياسة التطـهير العرقى لشعـبه، لذلك جاءت تحذيرات «يهوه» إله إسـرائيل من الاختلاط بشعـوب الأرض، وأدان حزقيـال وسائر الأنبيـاء الإسرائيليـين كل وجوه التعايش مع الآخـر، بل لقد اعتبر الرب إله إسرائيل هذا التـلاقح الثقافى العنصرى «رجاسات» ينبغى التطهر منها.

وقداســة أورشليم، عند بنى إسرائيـل - على نحو ما سنبـين فى هذه الدراسة - هى قضية مضطربة للغاية، إذ إن موقف القوم منها غامض إلى أن وقع التدمير البابلى لهـا. لم يذكرها موسى (عليه السلام)، ولم تنعم بنزول التوراة فيها، ولـم يكن هيكلها مقدسًا عند بانيه وورثته.

ومـا زالت قـداســـة أورشليم - حـتى اليـوم - مـــحل خـلاف بين الإسرائيليين أنفسهم، إذ يقول أمنون كوهين:

«إن مصـــدر الانطباعات القوية التى تـعكسها القدس فى أذهان العــامة والخاصة عـبر التاريخ وحتى أيامـنا هذه ناجم بالطبع عن أهميتهـا الدينية والثقافية، صحيح أن بوادر التوحيد لم تنشأ فى جبالها إلا أن المدينة كانت ولأول مرة عـاصمة كيـان سياسى، ألا وهو مملكة داود وسليـمان، التى تبلور كيـانها بفكرة الإيمان بإله واحـد، وأصبحت اليهـودية فيها شـعاراً وواقعًا فى الوقت نفسه»[1].

---

(١) أمنون كوهين (مـحرر)، القدس: دراســات فى تاريخ المدينة، ترجمة سلمــان مصالحـة، القدس، ١٩٩٠، ص: ٨.

إذن، لم تكن أورشليم هى تلك البقعة التى نشأ التوحيد فى جبالها، بل على العكس - وسنرى ذلك فى هذه الدراسة - كانت أورشليم من أكثر الأماكن تعبيرًا عن الشرك وعبادة الأوثان.

لكن كوهين يحدد لنا سببًا جوهريًا وراء تقديس المدينة وهو أنها كانت ولأول مرة - بل للمرة الوحيدة حتى ١٩٤٨ - عاصمة كيان سياسى هو مملكة داود وسليمان.

فالتقديس هنا يكمن فى أن أورشليم قد أصبحت رمزًا سياسيًا، ولا أكثر من ذلك.

أما موشى برلمان وتيدى كوليك فيذهبان مذهبًا آخر فى تبرير التقديس: «تنبع أهمية أورشليم من عظماء الفكر الإسرائيليين الذين كانوا بها فى العصور الماضية، الملوك، المفكرون، الأنبياء، الذين جعلوا من أورشليم مركزًا لهم. فمن أورشليم خرجت آراؤهم إلى العالم كله وغيرته، فقد أعلن إشعياء أنه: «من صهيون تخرج الشريعة، وكلمات الرب من أورشليم» . . . مفهوم الخير والشر، الأخوة الإنسانية، محبة الخلق، الحكم العدل، وكانت هذه هى مبادئ العبريين الأوائل، لقد كانت أورشليم هى المنبر الذى من عليه انتشرت هذه المبادئ فى العالم كله»[(١)].

والرأى السابق ينطوى على كثير من المغالطات التاريخية والدينية من وجهة النظر اليهودية.

فلم تكن أورشليم مهبط وحى أو مصدر شريعة، فالتوراة نزلت على موسى (عليه السلام) فى سيناء، والتلمود وضعت أسسه فى بابل، بل إن المدارس الفقهية الأورشليمية التى ظهرت بين بقايا اليهود الذين تركهم

---

(١) موشى برلمان وتيدى كوليك، أورشليم (بالعبرية)، حيفا، ١٩٧٧، ص: ١٢.

البابليـون فيها، أو فـيما بعـد، لـم تكن فى نفس قوة مدارس اليـهود فى بابل، ومن ثم ظل التلمود البابلى مسيطرًا على الفقه اليهودى حتى الآن.

أما المفاهيـم المزعومة التى عرفت فى أورشليم فـهى على العكس تمامًا من تفاصيل تاريخها الوارد فى العـهد القديم، والذى غلب عليه الشر لا الخير، والعداوة لا الأخوة، وكـراهية الآخرين، والظلم والجور، ولعنات الرب وغضبه عليها - كما سنعرض فيما بعد - خير شاهد.

لم يكن لأورشليم ولا لمفكريهـا أى تأثير خارج أسـوارها، فمن بيت لحم - مثـلاً - خرج المسيح (عليـه السلام) وانتشـرت دعوته فيمـا بعد، وأرسى قواعـد المحبة والسـلام بين البشر، بينمـا حفلت دعوات الأنبـياء الإسرائيليين - كما سطرتها الأسفار - بدعوات عنصرية، وتطهير عرقى، وصل إلى درجة التخلص من الزوجات الأجنبيات والأبناء.

أما إشعيـاهو ليفوفيتس فـيقول: «إن أهمية أورشليم لليهـودية واليهود هى قضية بديهية لنا فقط، وغير مـفهومة وغريبة لثلثى البشرية، حيث لا يعنى مفهوم الشعب اليهودى والتاريخ اليهودى لهم شيئًا.

إن الزعم القائل بعـدم التخلى عن السيـادة على جبل البيت لقداسـته بالنسبـة لليهودية ليس إلا نوع من الـنفاق السياسـى الدولى الذى يكتسى بطابع دينى، فدولة إسرائيـل العلمانية التى لا تعترف بالالتـزامات الدينية التوراتية والتشريعية، لا يحق لها استخدام المزاعم الدينية.

إن أورشليم ليست «مـدينة مقـدسة» إلا من زاوية وصايا عـبادة الرب المرتبطة بها، بمـعنى آخر: من ناحيـة وعى دينى يسعى لتطبـيق الوصايا، فالمدينة فى حد ذاتها والسيطرة علـيها هى إرث ثمين من الوعى القومى، لكنها ليست شيئًا مقدسًا، فإزاء الشعور الدينى ليس ثمة قداسة إلا لعبادة

الرب، وكل تقديس آخر هو وثنية تامة تحل محل الإيمان بالله.

إن الجمهور المتدين وزعماءه، الذين يعرضون المشكلة السياسية لأورشليم كمشكلة دينية، يسمحون لأنفسهم بعلمنة اليهودية، وقلب الدين، من عبادة الرب، إلى عبادة القومية»[١].

ربما كان التحليل السابق لفكرة قداسة أورشليم بالنسبة لليهود هو أكثر التحليلات التى تتفق والمنطق، بل والواقع.

فالقضية - إذن - سياسية بحتة، تصطبغ بألوان دينية براقة، لتبهر عيون الناظرين إليها من يهود الشتات.

هى نوع من النفاق السياسى - على حد تعبير ليفوفيتس - من شأنه أن يقود إلى «علمنة اليهودية» ، ذلك النفاق الذى دفع بن جوريون كى يعلن أن القدس «مثلما هى جزء لا يتجزأ من التاريخ اليهودى والعقيدة اليهودية وروح شعبنا، فإن القدس هى لب دولة إسرائيل»[٢].

وهكذا، فإنه عندما تختلط المفاهيم، تضيع الحقيقة.

وهنا نسعى إلى البحث عن الحقيقة بين سطور أسفار العهد القديم، لنصل إلى ما يمكن أن يؤكد مزاعم بن جوريون وأمثاله أو يدحضها.

هنا نسعى إلى البحث عن الحقيقة، لطالبى الحقائق ومريديها، أما عشاق الأساطير، فليس لهم عندنا بضاعة.

* * *

---

(١) إشعياهو ليفوفيتس، اليهودية.. الشعب اليهودى، ودولة إسرائيل، أورشليم وتل أبيب (بالعبرية)، ١٩٧٩، ص: ٤٢٣.

(٢) ميخائيل بريتشر، «الصراع السياسى حول القدس» فى: القدس، دراسات فى تاريخ المدينة، تحرير: أمنون كوهين، القدس، ١٩٩٠، ص: ٢٢٣.

الفصل الأول

أورشليم القدس

أسماؤها.. عروبتها.. جغرافيتها

أولاً - أسماء المدينة

ربما يندر أن نجد مدينة قد تعددت أسماؤها واختُلف فى تأويل هذه الأسماء على نحو ما نجد فى أورشليم القدس.

ومما يثير الانتباه حقًا أن تغفل الأسفار الخمسة (التوراة) من العهد القديم عن ذكر هذه المدينة التى احتلت - فيما بعد - مكانة بارزة فى الفكر الدينى الإسرائيلى، إلا فى مجال الذكر العارض الذى لا يعكس أية خصوصية لها، ونحن نعرف أن هذه الأسفار الخمسة (التوراة)، هى الجزء الوحيد المتفق عليه من بين أجزاء العهد القديم الثلاثة (التوراة، الأنبياء، المكتوبات) لدى سائر طوائف اليهود والنصارى، أما ما عداها فإنه محل خلاف بين إيمان وتصديق بكل حرف فيه، وبين إنكاره تمامًا أو إنكار بعضه.

فكل ما جاء عن أورشليم القدس فى غير هذه الأسفار الخمسة، لا يعترف به - مثلاً - اليهود السامريون، بناءً على موقفهم الرافض لسائر أجزاء العهد القديم.

عمومًا، فلنقلب صفحات العهد القديم - بأجزائه الثلاثة - لنبحث عن مسميات هذه المدينة، فلا شك أن أسماءها تعكس جزءًا من تاريخها العريق.

ففى لمحة ود وحب، يخرج بعض الملوك من جيران إبراهيم (عليه السلام) للترحيب به وتهنئته بعد انتصاره على أعدائه واسترداده لما سلب منه من ممتلكات، وما سبى منه من أهل وعشيرة.

وهنا نجد «ملكى صادق - ملك شاليم - أخرج خبزًا وخمرًا، وكان كاهنًا لله العلى، وباركه وقال: مبارك إبرام من الله العلى مالك السموات والأرض». (التكوين ١٤/ ١٨ - ١٩).

و«شاليم» الواردة آنفًا هى كذلك «ساليم» الواردة فى المزمور ٧٦/ ٣: «الله معروف فى يهوذا، اسمه عظيم فى إسرائيل، كانت فى ساليم مظلته، ومسكنه فى صهيون».

والأرجح هنا أن «شاليم» ليست سوى اختصار للاسم الكامل الوارد فى نصوص أخرى وصيغته «أورشليم»[1].

وبغض النظر عما تشير إليه عبارات سفر التكوين من اسم عربى لحاكمها، واعتقاد دينى تنزيهى يخلو من آثار الوثنية (الله تعالى.. مالك السموات والأرض)، فإن شاليم تنزوى من على صفحات الأسفار الخمسة بعد ذلك، ولا تشكل شيئًا فى تاريخ «الكون» المذكور بتفصيل ممل فى هذه الأسفار، ولا فى تاريخ «القوم» الوارد بتفصيل أكثر مللاً.

ونصل إلى سفر يشوع، السفر السادس فى الكتاب المقدس، هذا السفر الذى يجسد بداية التطبيق العملى للوعد الإلهى اليهوى بالأرض لبنى إسرائيل، عندما واجه يشوع تحالفًا من سكان البلاد الأصليين ضم ملوكًا خمسة، كان من بينهم «أدونى صادق ملك أورشليم». (يشوع ١٠/ ١).

ومع أن يشوع قد تمكن من أعدائه وهزم ملوك الأموريين الخمسة: ملك أورشليم، وملك حبرون، وملك يرموت، وملك لخيش، وملك

(١) دائرة المعارف المقرائية: (دائرة معارف العهد القديم) (بالعبرية)، إصدارات مؤسسة بيالك، القدس، ١٩٥٨، المجلد ٣، ص: ٧٩٢.

عجلون، إلا أن أورشليم لم تكن هدفًا استراتيجيًا - أو دينيًا - للقوات الإسرائيلية الغازية بقيادة يشوع فى ذلك الوقت، كما أنها كانت - على ما يبدو - محصنة يصعب اقتحامها من قبل يشوع وجنده، لقد دمر يشوع - حسب روايات السفر الذى يحمل اسمه - العديد من المدن: أريحا ولبنة ولخيش وجازر وعجلون ومقيدة وحبرون وحاصور، وأباد من فيها إبادة تامة، لكن التفاصيل الحربية الواردة فى سفر يشوع لا تذكر لنا على الإطلاق أن الغازين الإسرائيليين قد نالوا من أورشليم وسكانها.

ومع أن سفر يشوع يخبرنا بسكنى بنى يهوذا مع اليبوسيين سكان أورشليم «وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم» (١٥/ ٦٣)، إلا أنه - على ما يبدو - لم تكن أورشليم ذات قبول لدى الإسرائيليين، إذ ثمة رواية فى عصر القضاة تنبئنا بخلو المدينة من الإسرائيليين، وذلك فى الإصحاح التاسع من سفر القضاة، فى قصة ذلك الرجل اللاوى المتغرب الذى اتخذ له امرأة سُرِّيَّة من بيت لحم يهوذا، ثم زنت هذه المرأة وذهبت إلى بيت أبيها حيث مكثت أربعة أشهر حتى سار زوجها إليها «ليطيب قلبها ويردها»، وبقى فى بيت حميه خمسة أيام، ثم أخذ زوجه وغلامه «وذهب وجاء إلى مقابل يبوس، هى أورشليم، ومعه حماران مشدودان وسريته معه» (٩/ ١٠).

ولم يكن ثمة إسرائيلى واحد يقيم فى هذه المدينة حينئذ، بل كان سكانها اليبوسيون يقطنونها، وهذا ما تؤكده الفقرتان التاليتان للحدث السابق ذكره: «وفيما هم (اللاوى ومن معه) عند يبوس، والنهار قد

انحدر جداً قال الغلام لسيده: تعـال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيهـا. فقال له سيـده: لا نميل إلى مدينة غريبة حـيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا». (١٩/ ١١ - ١٢).

وتختفى المدينة لتظهر مرة أخرى فى سـفر صموئيل الثانى، وفى عهد داود، عندما نقل عاصمة مملكته من حبرون (الخليل) إليها، وكانت وقتئذ عامرة بسكانها اليبوسيين، حيث تقول الفقرات:

«وذهب الملك (داود) ورجـاله إلى أورشليم إلـى اليبـوسـيـين سكان الأرض. . . وأخذ داود حـصن صهيون. هى مـدينة داود. . . وأقام داود فى الحصن وسـماه مدينة داود، وبنى داود مـستديراً من القلعة فـداخلاً» (٥/ ٤ - ١٠).

وفى سفر أخبار الأيام الثانى، وفى عهد سليمان، نجد ما يلى:

«حينئذ جـمع سليمان شيوخ إسـرائيل وكل رؤوس الأسباط، رؤوس الآباء لبنى إسـرائيل إلى أورشليم لإصـعاد تابوت عـهد الرب من مـدينة داود، هى صهيون» (٥/ ٢).

ويحمل الإصحاح الحـادى عشر من سفر نحميا اسـمًا جديداً للمدينة على النحو التالى:

«وسكن رؤساء الشعب فى أورشليم، وألقى سائر الشـعب قرعًا ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى فى أورشليم مدينة القـدس والتسعة الأقسام فى المدن» (١١/ ١).

ويتكرر الاسم السابق «القدس» فى أحد المزامير حيث جاء فيه:

«ارفـعـوا أيديكم نحـو القـدس وبـاركـوا الرب. يبـاركك الرب من

صهيون، الصانع السموات والأرض» (١٣٤/ ٢ - ٣).

ويعود اسم «القدس» مرة أخرى للظهور على لسان النبى إشعياء:

«اسمعوا هذا يا بيت يعقوب المدعوين باسم إسرائيل، الذين خرجوا من مياه يهوذا الحالفين باسم الرب، والذين يذكرون إله إسرائيل ليس بالصدق ولا بالحق، فإنهم يُسمَّون من مدينة القدس، ويُسندون إلى إله إسرائيل، رب الجنود اسمه» (إشعياء ٤٨/ ١ - ٢).

هذه هى أسماء المدينة مثلما وردت فى الأسفار اليهودية المقدسة، وهناك أوصاف لها سنذكرها فى حينها.

فأول أسمائها هو يبوس، وهو بعينه أورشليم، ثم القدس.

وصهيون هى مدينة داود، لم يبنها داود، فقد كانت قائمة، لكنه احتلها وسوَّرها وأطلق عليها اسمه، ومدينة داود هذه - بالطبع - ليست هى أورشليم القدس، ونصوص العهد القديم تفرق دائمًا بين صهيون - أو مدينة داود - وأورشليم القدس:

«سبحى يا أورشليم الرب. سبحى إلهك يا صهيون»

(مزمور ١٤٧/ ١٢).

«يقول الرب الذى له نار فى صهيون، وله تنور فى أورشليم»

(إشعياء ٣١/ ٩).

«أنا أولاً قلت لصهيون هاهم، ولأورشليم جعلت مبشراً»

(إشعياء ٤١/ ٢٧).

وصهيون قلعة داخل أورشليم، فهى جزء من المدينة.

ومما يلفت الانتباه، أن هذه الأسماء جميعًا: صهيون، يروشالايم (أورشليم)، القدس، ليست أسماءً عبرية أو يهودية، ولا يمكن ادعاء ذلك بأى وجه من الوجوه، وإنما هى كنعانية، عرفت بها المدينة قبل أن يدخلها الإسرائيليون.

وأول ذكر لأورشليم ورد فى تلك النصوص المصرية القديمة المعروفة باسم نصوص اللعنة، وهى شذرات من الفخار عليها نقوش بالمصرية الهيراطيقية القديمة، تتضمن - حسبما فسرها الأثريون - أسماء البلاد والمدن والحكام الذين كانوا يعادون مصر، وكانت العادة آنذاك هى كتابة أسماء الأعداء على أوانى يتم تحطيمها فى طقوس سحرية تأثيرية، أى ترمى إلى التسبب فى اندحار هؤلاء الأعداء، ويرى العلماء أن تاريخ تلك الأوانى يرجع إلى زمن حكم الفرعون سيزوستريس الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٢ ق.م)، وضمت أسماء ١٩ مدينة كنعانية كانت «روشاليموم» من بينها.

وتدل أسماء أمراء أورشليم الواردة فى تلك النصوص المكتشفة على أن أهل أورشليم - شأنهم فى هذا شأن أهل سوريا - كانت لهم أصولهم السامية الغربية، وأنهم يشتركون معهم فى نفس النظرة إلى العالم[١].

وعاد اسم أورشليم مرة أخرى للظهور - فى الوثائق المصرية أيضًا - حيث ورد فى وثائق تل العمارنة التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م (يوروساليم)، كما وردت فى مخطوطات سنحاريب الآشورية (يوروساليمو)[٢].

---

(١) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧، ٢٨.

(٢) Ency clopaedia Judaica, Vol. 9, p.1379.

وتشير المكتشفات السابقة إلى أورشليم كمدينة كنعانية، حيث لم تكن فى أرض كنعان وقتئذ دولة متحدة، وإنما جمع من تكتلات قبلية شبه جوالة، ومدن قليلة يسيطر على كل منها «ملك» يخضع بشكل عام لإحدى القوتين العظميين آنذاك: مصر جنوبًا، وآشور شمالاً[(١)].

ولقد ذهب العلماء فى تبريرهم لاسم المدينة مذاهب شتى، يمكن الوقوف على أبرزها فيما يلى:

هناك شبه إجماع على أن الاسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين سكان المدينة، وهم فرع من الكنعانيين الساميين[(٢)]، وتتضح نسبة المدينة إلى سكانها كذلك من نص سفر القضاة الذى ذكرناه آنفًا حيث ورد فيه: «وفيما هم عند يبوس... قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين».

وكان اليبوسيون يسكنون القدس وما حولها، وذلك على نحو ما يظهر من فقرات العهد القديم فى سفر يشوع (١٥/ ٨، ٦٣) وسفر القضاة (١/ ٢١، ١٩/ ١٠)، وربما كان «يبوس» أحد أبناء كنعان، إذ ورد فى سفر التكوين ١٠/ ١٥ - ١٦ ما يلى:

«وكنعان ولد صيدون بكره وحثًا واليبوسى والأمورى والجرجاشى..» وإن كان سفر التكوين يخالف الحقائق التاريخية - ربما لدوافع نفسية بحتة عند كاتب السفر - حيث يجعل كنعان من أبناء حام «وبنو حام كوش ومصرايم وقوط وكنعان» (١٠/٦)، بينما هو من نسل سام.

---

(١) موشى برلمان وتيلى كوليك، أورشليم، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥.

(٢) سيد فرج راشد، القدس عربية إسلامية، د. ن، ط٢، ١٩٩٥، ص: ٣١.

وقد ظل اسم يبوس ملازمًا للمدينة وعلمًا عليها (قضاة ١٩/ ١٠) حتى تمكن داود من غزوها وتغيير معالمها (صموئيل الثانى ٥/ ٩، أخبار الأيام الأول ١١/ ٧ - ٨).

أما أورشليم فقد نسبه البعض إلى الإله المعبود فى هذه المنطقة أيام هجرة اليبوسيين، وهو الإله شالم[١].

وقال آخرون باحتمال أن تكون صيغة أورشليم آرامية مكونة من مقطعين: الأول - «أور» بمعنى موضع أو مدينة، والثانى «سالم» بمعنى السلام، وهو غالبًا اسم إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين، وهو إله سلامة القوافل، ومن ثم فكلمة «أورسالم» تعنى «مدينة السلامة»[٢].

وزعم فريق آخر أن الاسم أورشليم يتضمن اسم الإله السورى «شالم» الذى قيل: إنه هو نفسه الشمس الغاربة أو كوكب المساء، وأن ترجمة هذا الاسم هى: «شاليم وضع الأساس»، حيث كان الناس فى العالم القديم بالشرق الأدنى والبحر المتوسط يعتبرون أن الاستيطان وتخطيط المدن من الأعمال الربانية[٣].

وقد وجدنا الزعم السابق مطروحًا كذلك فى دوائر المعارف العبرية مع التأكيد على «شولمانو» أو «شاليم» كإله سامى غربى[٤].

وهناك من ربط بين «أورشليم» وكلمة «شالوم» العبرية حتى يصبح

---

(١) محمد صبيح، القدس ومعاركنا الكبرى، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧١، ص: ١٢٤.

(٢) سيد فرج، مرجع سبق ذكره، ص: ٣١.

(٣) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٧ - ٢٨.

(٤) Encyclopaedia Judaica, Vol. 9, p.1379.

الاسم ذا مغزى سياسى وهو «مدينة السلام»[(١)].

ووفقًا لرؤية مسيحية إنجيلية، يرى شفيق مقار أنه «طبقًا لما يقرره العهد الجديد، دعيت المدينة باسم «يروشاليم» أو «يروساليم» (الذى تحول إلى «يروشلايم» ثم بات «أورشليم») نسبة إلى مُنشئها «وملكها» ملكى صادق الذى دعى بملك ساليم، أى ملك السلام (رسالة إلى العبرانيين ٧/ ١ - ٢، يوحنا ٣/ ٢٣) المذكور فى التوراة باسم «ملك شاليم» (تكوين ١٤/ ٨)[(٢)].

وثمة ملاحظات لنا على تلك التخمينات الواردة فى تأويل أورشليم نوجزها فيما يلى:

١ - إن محاولة الربط بين «شاليم» وإله وثنى كنعانى مسألة فيها نظر، فالمكتشفات التى أمدتنا بأسماء آلهة الكنعانيين العديدة لم تشر على الإطلاق إلى وجود إله كنعانى بهذا الاسم.

٢ - لم يكتشف - حتى الآن - أى معبد فى أورشليم يرجع إلى تلك الفترة التى ظهر هذا الاسم فيها، وليس من المعقول أن تسمى مدينة باسم إله - تعظيمًا وتمجيدًا له - ولا نجد له معبدًا يتعبد فيه سكان المدينة الذين أطلقوا عليها اسم معبودهم.

٣ - محاولة إيجاد علاقة ما بين الاسم، والكلمة العبرية «شالوم» بمعنى: سلام، هى محاولة لعبرنة اسم المدينة، لا تعتمد على أسس منطقية أو تاريخية على الإطلاق، فليس ثمة وجود للعبرية يعتد به فى القرن

(١) موشى برلمان وتيدى كوليك، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥.

(٢) شفيق مقار، المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩٢، ص: ٢٥.

التاسع عشر أو الثامن عشر قبل الميلاد، وهو الزمن الذى ظهرت فيه تسمية أورشليم، بل هناك فاصل بين ظهور هذه التسمية وظهور اللغة العبرية يصل إلى ثمانمائة عام[1]، وتعترف أسفار العهد القديم ذاتها بعدم «عبرانية ويهودية» المدينة فى خطاب حزقيال لأورشليم: «هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أمورى وأمك حثية» (حزقيال ١٦/ ٣).

٤ - ومع اعتقادنا بأنه ليس هناك ضرورة لتعليل الأسماء وتبريرها، إلا أنه بالإمكان أن نجد تبريرًا وتعليلاً مقبولاً لتسمية أورشليم على ضوء موقعها الجغرافى.

فلقد كانت القدس قديمًا محطة قوافل، وكانت محطات القوافل فى القديم كالموانئ البحرية تمامًا، عبارة عن مراحل، تقوم القافلة - مثلاً - من عدن لتستريح فى صنعاء، ثم تقوم منها فتصل إلى مكة، ثم المدينة، فمدائن صالح... إلخ، وفى بلاد الشام مدن كثيرة كانت تقوم بمثابة محطات قوافل، وذلك مثل: تدمر ودمشق وطرابلس ومدينة شالم (أور بمعنى موضع أو مكان) التى معناها السلامة (ومادة الكلمة: السين - التى تقابلها فى بعض اللغات السامية الشين - واللام والميم تشير إلى معنى السلامة والسلام فى اللغات السامية) أى أن القافلة عندما تصل إليها تكون قد حظيت بالسلامة ووصلت إلى بر الأمان؛ لأنها بعد هذا تستطيع أن توازى ساحل البحر، وهنا لا ينقطع الماء ولا الأمن، وإذا حدثت عقبات

(١) أحمد سوسة، العرب واليهود فى التاريخ، العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د. ن، ص: ٣٩١.

فى الطريق، فبالإمكان الانتقال بحراً إما إلى تركيا، وإما إلى الساحل المصرى، ومن هنا فالأولى أن يكون مفهوم اسم هذه المدينة هو: مدينة السلامة.

أما التكلف الذى نجده فى التخمينات السابقة، فهو يُحمِّل الاسم ما لا يحتمل، والأمر الذى نريد التركيز عليه فى هذا المقام لا يتعلق بمعنى اسم المدينة، وإنما بوجود هذا الاسم قبل أن تطأ أقدام الإسرائيليين أرض كنعان بعشرات القرون[1].

وجدير بالذكر أن ثمة اضطراب فى كتابة الاسم «يروشالايم» بالعبرية فى العهد القديم، إذ كتبت بالياء قبل الميم ست مرات فقط، بينما كتبت بدونها حوالى ٦٥٦ مرة، وهذا يعكس - فى حد ذاته - غرابة الاسم على اللغة العبرية، ناهيك عن أن الفتحة والياء والميم فى نهاية الاسم العبرى تفيد التثنية (شتايم = اثنان، عينايم = عينان، أوزنايم = أذنان، زروعايم = ذراعان. . . إلخ)، بينما «يروشلايم» غير مثناة[2].

وأما تسمية القدس فقد رافقت المدينة منذ بداية تاريخها - أى قبل دخول العبريين وغزوهم للبلاد - عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة بالعبادات القديمة، وقد ورد هذا الاسم على نحو ما ذكرنا

(١) حول أسماء القدس انظر: هايل فهمى عبد الملك، «أورشليم القدس منذ أقدم العصور وحتى بداية العصر الرومانى: دراسة تاريخية وثائقية» فى: القدس التاريخ والمستقبل، أبحاث الندوة الدولية للقدس التى عقدها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط، ٢٩، ٣٠ من أكتوبر ١٩٩٦، تحرير: محمد إبراهيم منصور، جامعة أسيوط، ١٩٩٧، ص: ١٩٣، ١٩٤.

(٢) هناك كلمات معدودة فى اللغة العبرية تنتهى بعلامة المثنى وليست مثناة، ويصعب تبريرها من الناحية اللغوية.

فى بداية هذا الفصل فى أسفار التوراة (انظر: إشعياء ١٤٨، نحميا ١/١١).

وقد ذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام وسماها مرتين «قديتس» (فى الجزء الثانى والجزء الثالث من تاريخه)، ويقول المؤرخ اليهودى الفرنسى سالومون مونك فى كتابه عن فلسطين: إن هذا الاسم على الأرجح هو القدس، محرفًا عن اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا»[١].

ومادة هذا الاسم وهى: القاف والدال والسين (التى تقابلها الشين فى بعض اللغات السامية) تتعلق بالعبادة والطهارة والتخصيص، ومن ثم فإن دلالة «القدس» ترتبط على نحو ظاهر وبين بالعبادة.

وبالنسبة إلى «حصن صهيون»، فقد كان لليبوسيين قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من أورشليم، كانوا يطلقون عليها اسم «صهيون»، تم إنشاؤها لحماية مدينتهم والدفاع عنها[٢]، وربما كانت حصنًا خاصًا بملك أورشليم.

ولفظ «صهيون» كنعانى - وليس عبريًا - ولا يعرف معناه[٣]، وقد صار يعرف هذا الحصن فى عهد المسيح (عليه السلام) باسم جبل صهيون (رسالة إلى العبرانيين ١٢/ ٢٢، إلى أهل رومية ١١/ ٢٦).

وقد ظلت قلعة «صهيون» منذ أن شيدت - ولا يعرف تاريخ تشييدها

---

(١) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧، ص: ١٧.

(٢) شفيق مقار، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦.

(٣) Encyclopaedia Judaica, Vol. 9. p.1379.

- هى وأورشليم فى حوزة أصحابهما اليبوسيين حتى تم غزو داود لهما، والاستيلاء على هذا الحصن بدافع عسكرى بحت دون أن يكون له أى محتوى دينى أو ترابط غيبى، حيث لم يكن لصهيون آنذاك علاقة لا «بالشعب» ولا «بالإله يهوه»، ولا حتى بكهنة ذلك الإله، إن حنكة داود العسكرية والسياسية هى الدافع الأوحد وراء غزو هذا المكان واحتلاله.

وفى إطار سياسة «تغيير المعالم» سارع داود إلى تغيير اسم الحصن، ونسبه إلى نفسه حيث سماه بمدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٤ - ١٠)، وقد أكدت النصوص على ذلك المعنى حتى لا يحدث اختلاط على القارئ إذ جاء فى سفر أخبار الأيام الثانى: مدينة داود. هى صهيون» (٥/ ٢).

وهكذا يتضح لنا أن أسماء المدينة الرئيسة كانت سابقة للوجود الإسرائيلى فيها، كما لا يمكن بحال من الأحوال رد هذه الأسماء إلى اللغة العبرية، إذ هى سابقة كذلك عن ظهور تلك اللغة، أما ما يوجد من تشابه بين هذه الأسماء وجذور بعض الألفاظ فى اللغة العبرية فمرده إلى الأصل السامى لهذه الجذور.

وقد وردت عدة أسماء وصفات لمدينة أورشليم فى أسفار العهد القديم، بل إن هناك سبعين اسمًا نجدها فى المدراش اليهودى لهذه المدينة[1].

---

(١) انظر: أجادات شير هاشيريم (بالعبرية) فصل ١/ ٨ - ١٠، نقلاً عن شلومو دوف غويتاين، «القدس فى الفترة العربية ٦٣٨ - ١٠٩٩م» فى: القدس دراسات فى تاريخ المدينة، تحرير: أمنون كوهين، القدس، ١٩٩٠، ص:.٢٥.

فمن الأسماء التى يزعم أحبار اليهود فى التلمود أنها للقدس ما ذهبوا إليه من أن سام بن نوح قد سماها «شلم» أى السلام، وأن إبراهيم (عليه السلام) سماها «يرأه» بمعنى الخوف، فقرر الرب تسميتها بالاسمين معًا «يرأه - شلم» بمعنى «الخوف والسلام»[1]، وكان من الطبيعى - وفقًا لاتجاهات الفكر الإسرائيلى الأسطورية - أن تحاك الروايات الفولكلورية حول «السلام المتولد عن الخوف والرعب»، لمزيد من صبغ اللون العبرانى على اسم المدينة.

وأسماء وصفات أورشليم فى العهد القديم تتراوح بين الإيجابية والسلبية، وإن فاقت الثانية الأولى.

فمن الصنف الأول نجد:

«مدينة الله» مزمور ٤٦/ ٤.

«مدينة الملك العظيم» مزمور ٤٨/ ٢.

«مدينة الحق» زكريا ٨/ ٣.

«إريئيل» أى أسد الله، إشعياء ٢٩/ ١.

«المدينة المقدسة» إشعياء ٥٢/ ١.

ومن الصنف الثانى نجد:

«مدينة الدماء» حزقيال ٢٢/ ٢، ٢٤/ ٦، ٩.

«المدينة السافكة الدم» حزقيال ٢٢/ ٣.

«وكر الرذائل» حزقيال ٢٢/ ٤ - ٢٢.

---

(١) انظر: بريشيت ربا/ ٥٧ (المدراش، الشرح الكبير على سفر التكوين).

«المجسة الاسم» حزقيال ٢٢/ ٥.

أما المسميات: إيليا كابيتولينا، إيلياء، بيت المقدس، فهى مسميات لم تظهر فى ثنايا العهد القديم، الأمر الذى لا يحتم علينا الخوض فى تفاصيلها(١).

* * *

ثانيًا - عروبة أورشليم

ثمة نصوص عبرية عديدة فى أسفار العهد القديم تشير إلى السكان الأصليين للقدس من ناحية، كما تشير إلى منشأ هذه المدينة وأصولها من ناحية أخرى.

وطبقًا لمنهجنا فى هذه الدراسة، نسوق بعض هذه النصوص، ثم نتلوها بما يعضدها أو يفندها من آراء الباحثين.

ففى سفر يشوع، وفى الإصحاح الخامس عشر (٦٣)، يطالعنا كاتب السفر بقوله: «وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم».

وفى عصر القضاة، ومع أن بنى يهوذا قد دمروا أورشليم، فإن سكانها الأصليين ظلوا على أرضها، ولم يتمكن الغازون من طردهم:

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا

---

(١) للمزيد حول أسماء أورشليم، انظر: أحمد عبد الغفور عطار، عروبة فلسطين والقدس، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٤، ص: ٢٤ - ٣٥.

المدينة بالنار. . . وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم إلى هذا اليوم»

(قضاة ١/٨ - ٢١).

وقد مرت فترات زمنية فى عصر القضاة، عمت الفوضى بين بنى إسرائيل، ولم يكن فى أورشليم أحد من الإسرائيليين على الإطلاق.

«وفى تلك الأيام حين لم يكن ملك فى إسرائيل»، كانت أورشليم «مدينة غريبة حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا»

(قضاة ١٩/١ - ١١).

وواصل اليبوسيون وجودهم فى أورشليم قبل غزوها من قبل داود:

«وذهب الملك (داود) ورجاله إلى أورشليم، إلى اليبوسيين سكان الأرض» (صموئيل الثانى ٥/٦).

بل إن داود بعد استيلائه على المدينة لم يطرد سكانها، بل صاهرهم وامتزج معهم:

«وأخذ داود أيضًا سرارى ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون، فولد أيضًا لداود بنون وبنات، وهذه أسماء الذين ولدوا له فى أورشليم. شموع وشوباب وناثان وسليمان. . .». (صموئيل الثانى ٥/١٣ - ١٥).

فداود قد اندمج إذن مع اليبوسيين سكان أورشليم الأصليين وصاهرهم، بل وأكثر من ذلك أنجب منهم سليمان ولى عهده، ووارث ملكه، وبانى هيكل الرب، فاليبوسيون إذن أخوال سليمان وأهل أمه «بتشبع».

ثم يأتى النبى حزقيال ليضع لنا القول الفصل فى أصول أورشليم، بحيث لا يدع مجالاً للتأويل أو المزايدة، فالقول قول الرب:

«وكانت إلىّ كلمة الرب قائلة: يا ابن آدم: عرّف أورشليم برجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان أبوك أمورى وأمك حثية». (حزقيال ١٦/١ - ٤).

تلك هى شهادات العهد القديم حول أورشليم: نشأتها وسكانها، فمن هم اليبوسيون؟ ومن هم الأموريون والحثيون؟ ومن هم الكنعانيون؟

أعتقد أن التعريف بهؤلاء هنا ضرورة لا مناص عنها للوقوف على حقيقة أورشليم وسكانها.

هناك شبه إجماع بين العلماء على أن المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية - ومن ضمنها اليمن - هى الموطن الأصلى لتلك الشعوب السامية - المنحدرة من سام بن نوح (عليه السلام) - التى نزحت من جزيرة العرب فى أعقاب حالة الجفاف التى حلت بها بعد الدورة الجليدية الرابعة، وقد اتجهت هذه القبائل إلى شمال الجزيرة العربية ومنها توزعت شمالاً وشرقًا وغربًا[١].

من الحقيقة التاريخية السابقة يكون الساميون العرب أساس تلك الشعوب والأمم التى شكلت تاريخ تلك المنطقة من أرض الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين.

---

(١) أحمد سوسة، حضارة وادى الرافدين بين الساميين والسومريين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة دراسات (٢١٤) دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠، ص: ٦٥.

ومع أنه ليس بالإمكان تحديد بدايات هذه الهجرات السامية من الجنوب إلى الشمال، فإن هناك من يقدر وقوع هجـرة الساميين الذين استقروا فى بلاد سوريا وفلسطين باسم الكنعانيين قبل ٢٥٠٠ ق.م[١].

والكنعانيون من أهم الشعوب التـى نشأت وعاشت فى المنطقة السورية قديمًا، وهم يـكونون سكان فلسطين ومنطقة الساحل الفيـنيقى والأجزاء الساحلية الشـمالية فى نهاية الألف الثانية ق.م، ويجـمع اسم الكنعانيين عناصـر متعـددة منهـا: الأموريون والمؤابيـون والعمـونيون والأدومـيون والعبريون، الأمر الذى يشير إلى وجود «عوامل ربط» بين هذه الشعوب، أبرزها البيـئة الجغرافيـة الواحدة والأصول التاريـخية المشتركـة، والعادات والتقاليد المتشابهة، بالإضافة إلى الأصول اللغوية المتقاربة[٢].

ويرى الأب دوفو أن بداية العصر البرونزى القديم (٣١٠٠ ق.م) هى الزمن الذى استقر فيه الســاميون لأول مرة فى فلسطين، وقد أطلق عليهم «الكنعانيـون» تبعًا لإطلاق الكتـاب المقدس، الذى يخلع هذا الاسم على السكان الساميين فى فلسطين قبل وصول الإسرائيليين[٣].

وتشهد نـصوص التوراة باستـقرار الكنعانيين العـرب فى فلسطين قبل زمن إبراهيم (عليـه السلام) حـتى نسبت المنطقـة كلها إلـيهم، وسمـيت

---

(١) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٩، ص: ٥٤.

(٢) محمد خليفة حسن، رؤية عربية فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، القاهرة، ١٩٩٥، ص: ١٩٦.

(٣) روجيـه جارودى، فلسطين أرض الرسالات، ترجـمة وتعليق عبـد الصبور شـاهين، دار التراث، القاهرة، د.ت، ص ٧٤.

الأرض باسمهم:

«فأخذ أبرام (قبل أن يسمى إبراهيم) ساراى امرأته ولوطًا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا، والنفوس التى امتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا إلى أرض كنعان، واجتاز أبرام فى الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة موره، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض» (تكوين ١٢/ ٥ - ٦).

«وكان الكنعانيون والفرزيون (وهم من العرب أيضًا) حينئذ ساكنين فى الأرض» (تكوين ١٣/ ٧).

«أبرام سكن فى أرض كنعان» (تكوين ١٣/ ١٢).

«وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك. كل أرض كنعان ملكًا أبديًا، وأكون إلههم» (تكوين ١٧/ ٨).

وقد استمرت القدس - وفق ما تشير إليه وثائق تل العمارنة - مملكة كنعانية حتى حكم أسرة داود[١].

ويطلق اسم كنعان قديمًا على منطقة سوريا وفلسطين، وتعرف فلسطين فى أسفار العهد القديم باسم كنعان (تكوين ٢٧/ ٦، ٣٧/ ١، ٤٢/ ٢٩، وغيرها).

كما اشتملت «أرض كنعان» - حسبما جاء فى التوراة - على تلك المنطقة الواقعة بين شاطئ البحر المتوسط الشرقى من مدينة أوجاريت

---

(١) تلداف نثمان، مقال بالعبرية فى مجلة تسيون، أشير إليه فى صحيفة عل همشمار العبرية ٣١/ ٥/ ١٩٩٢، ص: ١٢.

القديمة وحتى غزة وبين الصحراء السورية، ومن سهول أدنة فى جنوبى آسيا الصغرى وإلى صحراء النقب جنوبى فلسطين.

وربما كانت مصادر دراسة هؤلاء الكنعانيين أقل من غيرهم، الأمر الذى يشكل بعض الصعوبة أمام الدارس لتاريخ هؤلاء القوم وحضارتهم، وإن كانت المكتشفات الحديثة قد حلت كثيراً من ألغازهم[١].

وإذا كان هناك بعض الباحثين الذين يزعمون أن لفظ كنعان لم يكن دقيقًا فى الدلالة على القبائل التى سكنت فلسطين قبل الفتح الإسرائيلى، إذ وجدت فيها بطون ذكرت فى التوراة كالأموريين واليبوسيين كان موطنها فلسطين، وأن نصوص التوراة تشير إلى أن هذه القبائل لم تكن كنعانية[٢]، فإننا لا نقبل روايات التوراة بوجه عام كشهادات تاريخية صادقة، وفى مجال الأنساب على وجه الخصوص، فهذه الروايات - على سبيل المثال - تجعل من كنعان ولدًا لحام، وتستبعده من نسل سام - لتحل عليه اللعنة وفق الأسطورة الواردة فى سفر التكوين (٩/٨ - ٢٩).

فاليبوسيون قبيلة كنعانية - «**وكنعان ولد صيدون بكره وحثًا واليبوسى...**» (تكوين ١٠/١٥ - ١٦) - عربية، أنشأت مدينة القدس وسكنتها إلى ما بعد الغزو العبرى الإسرائيلى لها، إذ عاصر ملكها العربى «ملكى صادق» إبراهيم (عليه السلام) - حسب روايات سفر التكوين ١٤/١٧ - ١٩ - الذى أكرم وفادة إبراهيم وباركه من الله

---

(١) حول مصادر دراسة الكنعانيين انظر: سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، د.ت، ص ١١٦، وما بعدها.

(٢) إسرائيل ولفنسون، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٦.

العلى(١)، ويؤرخ البعض للوجـود اليبوسى الكنعانى العـربى فى القدس بنحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد(٢)، كما يربط آخرون بين الأصل العربى للكنعانيين واليبوسيين وبين تأسيس مدينة القدس على أيدى هذه القبيلة، اسـتنادًا إلى أسمـاء ملوكـها وحكامـها، علـى نحو مـا ورد فى الوثائق التاريخية(٣).

فاليـبوسيـون إذن كنعانيون، والكنـعانيون - العـرب - جزء من تلك الشـعوب التى عـاشت غـربى نهر الأردن وسـميت كذلك بالأمـوريين Amorites، وانقسمت فيما بعد إلى سـبع قبائل كبرى هى: الأموريون (العـموريون)، والكنعـانيون، والحـثيـون Hittites والحويون Hivites والجرجازيون Girgazites والفزريون Perizzites واليبوسيون Jebus-ites(٤).

---

(١) انظر: أحمد سوسـة، العرب واليهود فى التاريخ، مرجع سـبق ذكره، ص: ٣٩١، حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٤.

(٢) خالد محمد غازى، القدس: سيرة مدينة، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ١٩٩٨، ص: ٢٣.

(٣) Demetri Baramaki, "From Ancient Times To The Begenning Of Muslim Era" in Jerusalem: The Key To World Peace Islamic council of Earopa, London, 1980, p. 124.

وانظر كذلك: جفريز، ج م ن، فلسطين: إليكم الحقيقة، ترجـمة: خليل الحاج، مراجعة: محمد أنيس، دار الكاتب العـربى، القـاهرة، ١٩٧١، ١/٣٦، نقـلاً عن: ظفـر الإسلام خـان، تاريخ فلسطين القديم، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٩.

(٤) Luke, H. & Keith Roach, Handbook of Palestine and Trans - Jordan, 3rd. ed., Macmillan & Co. Ltd., London, 1934, p.9.

وتشـير وثائق تل العـمارنة التى يرجع تاريخـها إلى الـقرن ١٤ ق.م وتضم ٣٦٠ رسالة موجهة إلى فرعون مصر، منها ست رسائل من عبدى حيبا - حـاكم القدس - يطلب فيها العون العـسكرى لمواجهة أعدائه[١]. ويتضح من اسم الحـاكم المقدسى (والذى يعنى: عبـد الإله حيبـا) وجود اليبوسيين العرب فيهـا، فى نفس الفترة التى يزعم البعض وجود العبريين فيها اسـتناداً إلى وثائق تل العمارنة المشار إليها آنفـًا، حيث يطلب حاكم أورشليم الدعم لصد هجـمات العابيرو أو الهابـيرو، إذ راح البعض يرى فى لفظ الهابيـرو أو العابيـرو علاقة بالتـسميـة الإسرائيلية لهـؤلاء القوم بالعبريين.

وليس ثمة عـلاقة بين حبـيرو - هابيرو - عـابيرو والعـبريين، فنفس اللفظ قد وجد - بالإضافة إلى رسائل تل العمارنة - فى كتابات الكشيين فى العراق (كتابات بابلية) وفى نقـوش الحثيين فى «بوغاز كوى»، وبعض النصوص الآشورية التى عثر عليها فى حفائر نوزى فى شمال العراق.

ويرى الفرنسى إدواردور أن العلاقة بين الكلمتـين مشكوك فيها، إذ أن «حبيرو - عابيرو...» صـفة بمعنى الرفيق أو الحليف أو الشريك وليست اسم علم، أما عبرى فهى مشتقـة من فعل شائع فى كل اللغات السامية، ومنها العـبرية والعربية، وهو الفعـل «عبر» بمعنى تخطى واجتـار، والعِبْر بكسر العين وسكون الباء معناه: الجهة الأخرى من الوادى أو من الجدول

(١) حول مـضمون هذه الرسـائل، انظر: عبـد الحميـد زايد، مصر الخـالدة، القاهرة، ١٩٦٦، ص: ٦٣٨، وانظر كذلك: جـودت السعد، أوهام التـاريخ اليهودى، الأهليـة للنشر والتوزيع، عـمان، ١٩٩٨، ص: ٦٤ وما بعدها.

الصغير أو النهـر أو البحر، وكانت تسمية «عـبرى» تطلق فى حينها على كل من يهاجر من العراق عابرًا نهر الفرات إلى الشام، وكان اليهود الأول كذلك[١]، جاء فى سفر يشوع (٢٤/ ٢- ٣) ما يلى:

«هكذا قـال الرب إله إسرائـيل: إن آباءكم سكنوا فى عـبر النهـر منذ الأزل، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحـور، وعـبدوا آلهـة أخـرى، فأخـذت إبراهيم أباكم من عـبر النهر، وسـرت به فى كل أرض كنعان، وأكـثرت نسله وأعطيته إسحق».

وتشيـر كارين أرمستـرونج فى هذا المقام إلى الخطأ الشائع فى اخـتراع العلاقة بين هابـيرو أو عبيرو وعـبرى، وترى أن «الهبير» أو «العـبير» لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقـات المجتمع الكنعانى، كانوا شعبًا تحول إلى طائفـة منبوذة فى المجـتمع، وطُرد من «المدن الدول» لأسـباب اقتصادية أو سيـاسية، وقد أصبحوا أحيانًا لـصوصًا وقطاع طرق، وأحيانًا أخرى جنودًا مـرتزقة[٢]. وكان الناس يعـتبـرونهم من قوى التـشتت فى كنعان، ومن هنـا جاء قلق الحاكم الأورشليـمى عبـدى - حيبـا من قبل سلوكيات هؤلاء.

ويؤكد ذلك الرأى وجـود التسمـية ذاتها فى وثـائق أخرى من مناطق

---

(١) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ١٦، ١٧.

(٢) Ahlatronm of Ancient Palestine, pp. 234 - 235, 247 - 248, Amnon Ben Tor, ed. The Archeology of Ancient Israel, Trans. R. Greenberg, New Haven and London, 1992, p. 213.

نقلاً عن: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٤.

أخرى متباعدة غير أورشليم، الأمـر الذى يفيد وجود جماعات من هؤلاء اللصوص والمرتزقة، يثيرون القلق فى أكثر من مكان، فى الوقت الذى لا نملك فيه دليلاً واحدًا على وجود العـبريين الإسرائيليين - فى تلك الفترة وهى القرن ١٤ ق.م - لا فى أورشـليم، ولا فى غيرها بالـطبع من مدن العراق، على نحو ما يزعم بعض الباحثين الإسرائيليين المعاصرين استنادًا إلى القصص المنسوب إلى آبائهم»[١].

نعود مـرة أخرى إلى أصـالة الوجود العربى فى القـدس واستـمرارية الصلة والعـلاقة بين العـرب وتلك المدينة، إذ عثـر على نقش مسـمارى يرجع إلى بدايات الألف الـثانى قـبل الميـلاد لملك مـن ملوك بابل يدعى «نرام سين» يتـحدث عن بطولات هذا الملك، وقـد ورد فى هذا النقش: «نرام سين، الملك القـوى المسيطر على الأقاليم الأربعـة... أخضع بلاد (مجان) وأخذ (مانيوم) أمير (مجان) أسيرًا».

ويرى عالـم الآثار الألمانى فريتـز هومل أن «مجـان» قد تكون تحـريفًا لاسم إقليم «معـين» الواقع فى اليمن، لكن الدكتـور حسن ظاظا يرى أن لفظة «مجان» قد تكون فى الأصل «معـان» الواقعة فى أقصى الشمال من الحجاز، شرقى خليج العقـبة، وهو يعتمد فى رأيه هذا على أن اسم هذا الأمـيـر «مانيـوم» الذى كـان يحكم «مـجـان» - والذى ربما كـان النطق الأشورى للاسم العربى «معن» بضم وتنوين - وهو اسم شائع بين عرب الشـمال، وغـير مـألوف بين عرب الجنوب، إذ لا نجـده - غالبًـا - فى

---

(١) يوحنان إهارونى، أرض إسرائيل فى زمن العهد القديم: جغرافيا تاريخية، (بالعبرية)، ١٩٨٨، ص: ١٥٣.

النقوش اليمنية، بينما يكثر استخدامه فى الشعر العربى الجاهلى، وكذلك فى بعض النقوش الصفوية فى الشمال(١).

ولا نعدم وجود أدلة عديدة على أن العرب قد كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من العناصر المكونة لسكان فلسطين الأصليين قبل أن يتسرب الإسرائيليون إليها.

فعندما فكر إبراهيم (عليه السلام) فى إسكان زوجه هاجر وابنه منها إسماعيل فى مكة بعد مضايقات زوجه الأولى وغيرتها، لم يكن تصرف إبراهيم (عليه السلام) هذا من قبيل الصدفة، إذ لا مجال للصدفة فى تنظيم العلاقات وحل الخلافات عند رؤساء العشائر الأقدمين.

لقد اختار إبراهيم (عليه السلام) مكة لوجود علاقات قرابة وتحالف وذمة مع سكانها، وإلا لما خاطر بإرسال زوجه وابنه إلى هذا المكان القفر النائى، فعرب مكة آنذاك كان لهم وجود واتصال بفلسطين بدرجة جعلت رجلاً مثل إبراهيم (عليه السلام) يأمنهم على زوجه وولده.

حتى بعد إبراهيم (عليه السلام) بعدة أجيال، نجد القوافل العربية تشق فلسطين فى أمن واطمئنان تحمل تجارتها من الشام إلى مصر، ودليل ذلك تسطره التوراة، فى سفر التكوين، عندما تآمر أبناء إسرائيل ضد أخيهم يوسف وطرحوه فى الجب، وبيع للإسماعيليين العرب (٣٧/ ٢٥ - ٢٨).

وهناك العديد من نصوص العهد القديم التى تشير إلى الوجود العربى فى شمال الجزيرة العربية بوجه عام، وفى فلسطين بصفة خاصة.

فقد كان للعرب وجود بارز عندما فكر اليهود المنفيون فى العودة إلى

---

(١) سيد فرج راشد، مرجع سبق ذكره، ص: ٤٨.

أورشليم بعد تدميرها على أيدى البابليين، وبدعم من ارتحشستا - الملك الفارسي - يقول نحميا:

«ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العموني وجشم العربي هزأوا بنا واحتقرونا...» (نحميا ٢/ ١٩).

ويقول في موضع آخر:

«ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رممت والثغر ابتدأت تسد غضبوا جداً» (نحميا ٤/ ٧).

فالوجود العربي قد استمر في فلسطين في فترات لم يكن فيها وجود إسرائيلي، فلما عاد المسبيون إلى بابل، كان للعرب كيان له القدرة على إقامة تحالفات مع الأنداد من الأمم والشعوب المجاورة.

وإله الإسرائيليين كان يعي جيداً وجود العرب، وقد أمر النبي إرميا بالذهاب إلى ملوكهم:

«لأنه هكذا قال لي الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السخط من يدي واسقِ جميع الشعوب الذين أرسلك أنا إليهم... وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيف الساكنين في البرية» (إرميا ٢٥/ ١٥ - ٢٤).

فلو كان العرب حينئذ بعيدين عن بني إسرائيل في فلسطين، ما كان لهم شأن بهم ولا بإلههم.

ثم إن عبارة «ملوك العرب» توحي بوجود كيانات سياسية عربية مستقلة ولها هيبتها في النفوس الإسرائيلية.

ولم يكن العرب كذلك مجرد رعاة ينتقلون من مكان إلى آخر، بل

كان لهم كيان اقتصادى واضح المعالم، هذا ما يحدده رب إسرائيل حين يقول لحزقيال:

«العرب، وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة، فى هذه كانوا تجارك» (حزقيال ٢٧/ ٢١).

وتجار عدن - وهم عرب بالطبع - يشير إليهم الرب قائلاً عنهم:

«هؤلاء تجارك بنفائس وبأردية أسمانجونية ومطرزة...»

(حزقيال ٢٧/ ٢٤).

فلم يقتصر الوجود العربى إذن على المقيمين فى فلسطين وما حولها، بل عرفت هذه البلاد أيضًا التجار العرب القادمين إليها من أقصى الجنوب.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض النصوص العبرية - وغيرها كالبابلية الآشورية - تشير إلى لفظة «عرب» كمدلول جغرافى لإقليم محدد فى منطقة فلسطين، وهو ما يعكسه نص سفر إشعياء الوارد فى (٢١/ ١٣).

ولقد أشار «الفريد إرميا» فى كتابه: «العهد القديم فى ضوء الشرق القديم» إلى أن كلمة «عرب» فى النصوص العبرية تشير إلى بعض أجزاء من فلسطين، وبخاصة الجزء الجنوبى منها، والذى يطلق عليه أحيانًا اسم «يهودا»، والذى كان آهلاً ومسكونًا بالعرب[1].

وتأكيدًا على هذا الوجود العربى، تشير النقوش الآشورية إلى أن الإمبراطور الآشورى سلما نصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٥ ق.م) قد واجه

---

(١) فؤاد حسنين على، فلسطين العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص: ٦٣.

تحالفًا مضادًا له يضم الآراميين وملكًا عربيًا اسمه «جندبو» (أى جُنْدُب)، كما تشير الحوليات الآشورية إلى أن ملك العرب قد أرسل إمدادات هائلة محملة على ألف جمل خلال موقعة قرقار (٨٥٤ ق.م)، أما السبى الآشورى لفلسطين والوارد فى حوليات الملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، فقد كان من نتائجه أن تسلم الملك الآشورى الجزية من فرعون مصر ومن شمس - ملكة العرب.

وفى نقش آخر لسرجون الثانى نجد عملية ترحيل لبعض القبائل العربية (مثل ثمود والعباد) إلى السامرة بعد تدمير إسرائيل عام ٧٢٢ ق.م[١].

وفى عهد التلمود والمشنا، نجد روايات لا حصر لها تشهد بأن الوجود العربى فى إطار المجتمع الفلسطينى الأصلى لم ينقطع، أى أن الوجود العربى منذ بداية تاريخ أورشليم كان معروفًا من ناحية، ومتواصلاً من ناحية أخرى.

وهنا يسقط الزعم القائل بأن أورشليم قد عرفت العرب مع دخول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) إليها، فالفتح العمرى للبلاد قد أدخل الإسلام ولم يدخل العرب، كما أنه طرد منها المستعمر الأجنبى - الذى لم يكن اليهود بالطبع، إذ تم طرد هؤلاء أيام الرومان عام ٧٠م - ووضع حدًا لاحتلال دولة الروم للقدس.

أما الشعب الفلسطينى، فترى بعض المصادر[٢] أن وجوده فى كنعان -

---

(١) انظر: سيد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) يوحنان إهارونى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢١٣، ٢١٤.

وانظر كذلك: الأب متى المسكين، تاريخ بنى إسرائيل، وادى النطرون، القاهرة، ١٩٩٧، ص٦٧.

فلسطين - يرجع إلى ما بعد الوجود الإسرائيلى بعدة أجيال، ضمن هجرة شعوب البحر التى تحركت شرقًا من جزر اليونان وآسيا الصغرى، ويحددون ذلك الغزو الفلسطينى بعصر الفرعون المصرى رعمسيس الثالث (١١٧٠ ق.م تقريبًا).

لكننا نقف على بعض النصوص التوراتية التى تشير إلى وجود شعب فلسطينى وملك فلسطينى وأرض فلسطينية فى عصر إبراهيم (عليه السلام) أى فى القرن ١٨ ق.م تقريبًا، أى قبل الغزو الإسرائيلى لفلسطين بحوالى خمسة قرون أو أكثر:

«فقطعا إبراهيم، وأبيمالك - ملك جرار **الفلسطينى** - ميثاقًا فى بئر سبع، ثم قام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه، ورجعا إلى أرض **الفلسطينيين**، وغرس إبراهيم أثلاً فى بئر سبع، ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى، وتغرَّب إبراهيم فى أرض **الفلسطينيين** أيامًا كثيرة» (تكوين ٢١/ ٣٢ - ٣٤).

«وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم، فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك **الفلسطينيين** إلى جرار، وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن فى الأرض التى أقول لك. تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك؛ لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد» (تكوين ٢٦/ ١ - ٣).

«وزرع إسحق فى تلك الأرض، فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب، فتعاظم الرجل، وكان يتزايد فى التعاظم حتى صار عظيمًا جدًا، فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر، وعبيد كثيرون، فحسده

الفلسطينيون، وجميع الآبار التى حفرها عبيد أبيه فى أيام إبراهيم أبيه طمها الفلسطينيون وملأوها ترابًا» (تكوين ١٦/١٢ - ١٧).

وليس لدينا دليل توراتى على أن الفلسطينيين - الذين عاصروا داود وآووه وعزروه، ثم قاتلهم بعد ذلك - هم فلسطينيون آخرون غير هؤلاء الذين كانوا فى زمن إبراهيم السابق لداود بثمانية قرون تقريبًا، ومن ثم، فإن الوجود الفلسطينى المستقر فى هذه البلاد كان سابقًا للغزو الإسرائيلى اللاحق لخروج بنى إسرائيل من مصر.

* * *

ثالثًا - جغرافية القدس

تقع مدينة القدس على خط عرض ٣١ْ ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء، وعلى خط ٣٥ْ ١٣َ ٢٥ً شرق جرينتش، وهى هضبة غير مستوية تمامًا يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ و٢٤٦٩ قدمًا، ويبلغ متوسط ارتفاع المدينة فوق سطح البحر الأبيض المتوسط من اتجاه الغرب ٢٥٠٠ قدم، ٣٨٠٠ قدم من سطح البحر الميت من اتجاه الشرق، وتبعد المدينة عن البحر المتوسط حوالى ٣٢ ميلاً غربًا، وحوالى ١٨ ميلاً عن البحر الميت شرقًا، ١٩ ميلاً عن الخليل (حبرون) جنوبًا، ٣٠ ميلاً عن السامرة شمالاً، أما جوها فقارى صحراوى تتجاوز فيه الحرارة ٣٠ْ صيفًا، وقد تصل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاءً، كما أن التفاوت فى الحرارة بين الليل والنهار كبير، أمطارها شتوية متوسطة، رطوبتها متوسطة كذلك، تندر بها الثلوج، ليس بها أنهار، تحيط بها العيون التى فى صلاحية مياهها

للشرب[١].

وتتميز أورشليم القـدس بموقع جغرافى استراتيجى، إذ منحـتها القدرة الإلهية أقوى التـحصينات لحماية نفسهـا من الغزو، فهى تقع على أرض مرتفعة محـاطة من جميع أطرافها بأودية عميـقة: وادى «قدرون» شرقًا، ووادى «هنوم» غربًا، ويبدأ الواديان فى الطرف الشمالى الغربى من المدينة ويلتقيان فى جنوبها، وبذلك يحـيطان القدس من أطرافها الثلاثة: الشرق والغرب والجنوب.

* * *

(١) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٠، سيد فرج راشد، القدس: عربية إسلامية، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٣.

أودية المدينة

١ - وادى قدرون (الوادى الشرقى):

يبدأ هذا الوادى على بعد ميل ونصف الميل إلى الشمال الغربى من المدينة حيث يسير أولاً إلى الشرق إلى أن يصل إلى الزاوية الشمالية الشرقية لسور المدينة[١]، ثم ينحرف بعد ذلك بميل حاد تجاه الجنوب فينحدر بين سور المدينة من الجانب الغربى وبين جبل الزيتون وتل الزيتون وتل المعصية من الجانب الشرقى[٢] حتى يلتقى مع وادى «هنوم» المنحدر من الغرب، بعدها ينحدر المجرى الموحد إلى «مارسابا» المسمى بوادى «الراهب» ومن ثم يمتد إلى البحر الميت حيث يسمى «وادى النار»[٣]، وكان يعرف قديمًا بوادى قدرون (الوادى الأسود)، كما كان يسمى كذلك وادى «يهوشافاط».

وقد ورد ذكر هذا الوادى فى قصة داود وصراعه مع ابنه أبشالوم (صموئيل الثانى ١٥/ ٢٣، ٣٠) كما أحرقت فيه تماثيل معكة (الملوك الأول ١٥/ ١٣، أخبار الأيام الثانى ١٥/ ١٦).

ويبلغ طول هذا الوادى نحو كيلومترين، ويبلغ ارتفاعه فوق سطح البحر حوالى ٢١٧٩ قدمًا.

٢ - وادى هنوم (الوادى الغربى):

ينحدر رأسًا إلى الجنوب من شمال غربى المدينة، ثم ينعطف شرقًا بعد وصوله إلى حد المدينة الجنوبى حتى يتصل بالوادى الشرقى (قدرون) عند

---

(١) ستتحدث عن أسوار المدينة فيما بعد.

(٢) يبلغ ارتفاع جبل الزيتون ٢٦٨٢ قدمًا فوق سطح البحر، أما تل المعصية فيقع على الطرف الجنوبى من جبل الزيتون وسمى بهذا الاسم؛ لأنه كان موضع عبادة الأوثان فى عصر سليمان.

(٣) يسمى حاليًا وادى «ستى مريم».

الموضع المعروف باسم «بئر أيوب».

ويسمى هذا الوادى بوادى «سلوان» وهو اسم النبع الموجود فيه، كما يعرف كذلك بوادى «بنى هنوم» نسبة إلى قبيلة كان يسمى بها الوادى قبل الوجود الإسرائيلى على نحو ما ورد فى العهد القديم (يشوع ١٥/٨، نحميا ١١/ ٣٠، وادى هنوم، الملوك الثانى ٢٣/ ١٠ وادى بنى هنوم، يشوع ١٥/٨، ١٨/١٦، أخبار الأيام الثانى ٢٨/ ٣، إرميا ٧/ ٣٢ وادى ابن هنوم).

كما كان الجزء الجنوبى الشرقى من هذا الوادى يسمى «توفة» (إرميا ٧/ ٣١، الملوك الثانى ٢٣/ ١٠)، أو وادى القتل (إرميا ٧/ ٣٢، ١٩/ ٦)، وأجاز آحاز ومنسى - ملكا أورشليم - أولادهما بالنار - على عادة أهل كنعان الوثنية - ويصل ارتفاع هذا الوادى إلى ما يقرب من ٢٠٢٩ قدمًا.

٣ - وادى الجبانين = الجبانة (صانعى الجبن)

يمتد هذا الوادى من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى حتى يتصل بوادى سلوان الذى يتصل بوادى قدرون شرقًا، ويقسم هذا الوادى المدينة إلى قسمين مؤلفين من هضبتين مستطيلتين: الغربية يحدها وادى هنوم من الغرب، والشرقية يحدها وادى قدرون من الشرق، وهذا الوادى مطموم الآن، كما ردم جزء منه فى أعمال توسعة لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل الموريا (هضبة الحرم الشريف).

٤ - وادى الأرواح:

ويعرف هذا الوادى كذلك بوادى العفاريت، ويلتف حول جبل صهيون من الغرب وحتى أقصى الجنوب، وتوجد به مدافن الموتى.

وقد ورد هذا الوادى فى يشوع ١٥/٨ باسم وادى الرفائيم أى وادى العفاريت.

جبـال المدينـة

١ - جبل الزيتون:

يواجه هذا الجبل أسـوار الحرم من الجهة الشرقيـة، ويفصله عن الحرم وادى قـدرون، ويعـتبـر من أهم الجـبـال المحيطة بـالقدس من النـاحيـة التاريخية، حيث يسميه التلمود «جبل المسح» (جبل التتويج)، حيث كانوا يأخذون الزيت المقدس من زيتونه، ويستعـملونه فى تتويج ملوكهم، كما كانوا يحرقـون عليه بقرة القربان الحمـراء ويستخدمون رمـادها فى تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا ما دنسه شيء.

٢ - جبل بطن الهوا:

وهو امتـداد لجبل الزيتـون فى الزاوية الجنوبية الشرقـية للقـدس حيث يفـصله عنـهـا وادى سلوان الذى يتـصل بوادى قـدرون فى هـذه النقطة نفسها.

ويعرف عند اليهود باسم «هار هامشحيت» (الجبل الفاضح)، وقد ورد فى سفر الملوك الأول (١١/ ١-٨) أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات.

٣ - جبل صهيون:

يقع فى جنوب غرب القدس القديمة، وكانت عليه قلعة حصينة أقامها اليبوسيون - سكان أورشليم الأصليون - وشـيدوا حولها سورًا فى طرفه برج عال للسيطرة على المنطقة من فـوقه، وقد انتزع داود هذا الحصن من

أصحابه، حيث نقل مقر حكمه إليه فى السنة الثامنة من ملكه.

وكان هذا الجبل يعرف باسم الأكمه أو «أوفل» (الملوك الثانى ٥/ ٢٤، الأخبار الثاني ٢٧/ ٣، ٣٣/ ١٤، إشعياء ٣٢/ ١٤، ميخا ٤/ ٨)، ويبلغ ارتفاع جبل صهيون حوالى ٢٥٥٠ قدمًا فوق سطح البحر، وينحدر باتجاه وادى قدرون.

وفى موضع حصن صهيون، أنشأ السلوقيون فى عهد الملك اليونانى السلوقى أنطيوخوس الرابع (ابيفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ - ١٦٤ ق.م، قلعة عرفت باسم «أكرا» ومن ثم أصبح يطلق على هذا الجبل اسم «جبل أكرا».

٤ - جبل موريا - جبل بيت المقدس:

وهو الحرم الشريف، حيث يوجد المسجد الأقصى، ورد اسم «موريا» فى التكوين (٢٢/ ٢) فى قصة الذبيح، حيث حدد الرب هذا الموضع كى يذبح إبراهيم (عليه السلام) ابنه عليه، وإن كان اليهود على خلاف فى موضع هذه القصة، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جرزيم بالقرب من نابلس، حيث قام أقدم هيكل للإسرائيليين، وقد أبطله داود بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، أما سائر الطوائف اليهودية الأخرى فتزعم أن هذه الحادثة كانت على جبل «موريا» وعلى الصخرة الشريفة على وجه التحديد.

ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالى ٢٤٤٠ قدمًا، وقد سمى المؤرخ اليهودى يوسيفوسس هذا الجبل بالمدينة العليا، فى مقابل المدينة السفلى التى هى القسم الجنوبى من الهضبة الشرقية، أى موضع حصن صهيون.

٥ - جبل المشارف:

سمى هذا الجبل بهذا الاسم؛ لأنه يشرف على القدس، ويبتدئ من شمالى شعفاط وينتهى بجبل الزيتون، ويقع فى شمالى بيت المقدس بانحراف يسير تجاه الشرق، يرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ مترًا، ويقوم على الطريق المؤدية إلى رام الله، ويسمى هذا الجبل كذلك بجبل المشهد وجبل الصوانة، وكان معظم الفاتحين والغازين للقدس يقيمون معسكراتهم عليه، على نحو ما فعل القائد الرومانى تيتوس عام ٧٠م، والصليبيون عام ١٠٩٩م تقريبًا، ويمتعون أنظارهم بمرأى المدينة المقدسة، ويطلق الأوروبيون على هذا الجبل اسم جبل سكوبوس (باليونانية تعنى الملاحظ أو المراقب)، بينما يسميه اليهود (هار هاتسوفين) وهى ترجمة للتسمية العربية، وقد أقام الإسرائيليون عليه الجامعة العبرية.

ويعتبر البعض هذا الجبل امتدادًا لجبل الزيتون لجهة الشمال الشرقى، ويقع بين جبل المشارف والقدس وادى الجوز[1].

* * *

---

(١) اكتفينا هنا بأهم جبال القدس وأشهرها، إذ هناك جبال أخرى أقل أهمية وأقل شهرة مما ذكرناه آنفًا.

أسوار المدينة

كانت الأسوار فى العصور القديمة تمثل ركنًا حصينًا من حياة المدن، ولم تكن أورشليم بدعًا فى ذلك، وأقدم أسوار هذه المدينة يرجع إلى عهد اليبوسيين، السكان الأصليين لأورشليم، وكان يحيط بحصن يبوس «حصن صهيون»، ويشكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن، وكان النفق الذى يسحب المياه من عين جيحون ينتهى إلى البركة داخل هذا السور، ولما احتل الملك داود الحصن فى القرن العاشر قبل الميلاد، أقام أبنية أضافها إلى الحصن وقام بتغيير اسم المنطقة إلى «مدينة داود»، ثم اشترى بيدراً من أرونة اليبوسى شمال حصن يبوس وبنى فيه مذبحًا للرب.

ونرجح أن داود قد قام بتوسعة للسور اليبوسى ليضم داخله جبل المريا الذى يقع فيه البيدر المشترى، وطبيعى أن يكون سليمان قد قام بتقوية هذا السور وتوسيعه بعد أن أقام هيكله وقصره، وقد قام نبوخذ نصر فى غزوه لأورشليم بتدمير الهيكل والسور، ولا يوجد لهذا السور أى أثر حتى الآن.

بعد العودة الإسرائيلية إلى أورشليم من بابل، أعيد بناء السور فى عهد نحميا فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، والذى يعتبر بمثابة «السور الثانى» للمدينة، وقد اتبع البناة فى إعادة الإنشاء نفس الخط الذى كان يسير عليه السور القديم الذى كان الملك اليهوذى قد أقامه عام ٦٤٤ ق.م إبان الحملة الآشورية فى عهد آشور بانيبال، ثم هدم فى عهد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق.م، وقد استعملت نفس الأسماء القديمة لأبواب السور

وأبراجه، والوصف التفصيلى لعملية إعادة البناء، الوارد فى سفر نحميا (٣/ ١ - ٣٢) يعطينا صورة واضحة عن اتساع المدينة آنذاك، إذ يبدأ السور من باب الضأن شمال الهيكل ممتدًا إلى الغرب، ثم الجنوب، ثم الشرق، ثم الشمال ليعود ويتصل بنقطة البداية.

أما الأبواب حسب تسلسلها فهى ثلاثة فى السور الشمالى (باب الضأن وباب السمك والباب العتيق) ويبين لنا سفر إرميا أسماء بناة كل باب من هذه الأبواب (٣/ ١ - ٦).

ويلاحظ أن السور عند الزاوية الشمالية الغربية أضخم من بقية أقسامه، وسبب ذلك هو أن هذا الجزء كان مجردًا من وسائل الدفاع الطبيعية على عكس ما كانت عليه بقية الأجزاء التى تحيط بها الأودية من كل أطرافها.

أما الأبواب الأخرى فهى: باب إفرايم غربًا، وبابا الوادى والدمن جنوبًا، وأبواب: العين والماء والخيل والشرق والسجن والزاوية شرقًا (انظر نحميا ٣)، وأهم أبراج السور كانت تقع فى الطرف الشمالى وفى الزاوية الشمالية الغربية المكشوفة وهى: برج المئة وبرج حننئيل وبرج التنانير (نحميا ٣).

ربما بقى سور نحميا (السور الثانى) حتى عهد المكابيين (١٦٧ - ٣٧ ق.م)، مع أن بطليموس الأول قد دك جانبًا منه عام ٣٠٠ ق.م، وأنطيوخوس الرابع جانبًا آخر عام ١٦٨ ق.م، وفى عهد هيرودس الكبير (٣٧ - ٤ ق.م)، تمت تقوية السور دون أى تغيير فى تخطيطه على الأرجح، وقد شرع اليهود فى عهد هيرودس أغريبا (٤١ - ٤٤م) فى بناء

سور جديد فـى الجهة الشماليـة، غير أن الإمبـراطور الرومانى قلوديوس منعهم من مواصلة العمل، فأتموا البناء قـبل حصار تيتوس لأورشليم عام ٧٠م، ويسمى هذا السور الثالث سور «هيرودس اغريبا»، وقد ضم منطقة «بيزثيا» الشمالية(١).

ويحق لنا بعـد هذا الوصف لمعالم أورشليم الـقدس أن نتسـاءل: هل حقًا ما زالت آثار اليـهود باقية حتى الآن، يأتى إليهـا الباكون والمتطلعون إلى إعادة البناء مرة أخرى؟!

للإجابة عـلى هذا التساؤل أقـتطع تلك السطور لرئيس مـركز إحـياء التراث الفلسطينى، فيصل صالح الخيرى إذ يقول(٢):

«كـانت مدينة القـدس باسـتمـرار مـحط أنظار الدارسـين التوراتيـين والطامعـين فى الكنوز الأثرية، إلا أن كـثرة المبانـى التاريخيـة فى المدينة وخيبـة الأمل التى أصابت الكثيـرين منذ أن عمل فيهـا الكابتن الإنجليزى (تشـارلز وارن) فى عـام ١٨٦٧ بسـبب صعـوبة ربط آثارها بالحـوادث التوراتيـة - أدتا إلى فترة انقطاع عن التنقـيب فيهـا، ويظهر أن السلطات العثمانية كانت قـد حذرت من منح تصاريح فى المدينة حتى عام ١٩٠٩، ففى هذه السنة تمكن الكابتن الإنجليزى «باركـر» من الحصول على تصريح بالعمل جنوبى منطقة الحرم الشريف، إلا أنه خدع المسئولين الأتراك وأخذ ينقب ليلاً فى منطقـة الحرم نفسه إلى أن اكتشـفت السلطات أمره، وتمكن

(١) المزيد حول أسوار القدس فى: مائيـر بن دوف، الإنسان والحجر فى أورشليم، تل أبيب، ١٩٨٩، ص: ١٢ وما بعدها.

(٢) من مقال له عن القدس والآثار، نشر فى صحيفة الأسبوع القاهرية، بتاريخ ٤/ ٩/ ٢٠٠٠.

من الهـرب قبل صـدور الحكم عليـه، وقـد ظلت القـدس بؤرة اهتمـام الباحثين التوراتيين.

وكلما انتهـت بعثة من التنقيب فيـها زاولت بعثة أخـرى حتى الحرب العالميـة الثانية، ففى عـام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ أشرف «فيل» على الحفر فى الهضـبة الجنوبيـة الشرقيـة من المدينة، وعمل فى الوقت نفـسه ١٩٢٤ - ١٩٢٥ فى السفح الشرقى من الهضبة كل من (ماكلستر) و(دانكن) ونقب فى السفح الغربى منهـا ١٩٢٧ - ١٩٢٨ (كروفوت) و(فتسجـيرالد) بينما تركزت حفـريات (بسوكنيك) و(ماير) فى الفـترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ثم فى عام ١٩٤٠ فى الجزء الشمالى خارج سور المدينة القديمة بحثًا عن الأسوار التـوراتية. أما (هاملتـون) فقد كـشف عام ١٩٣٠ ثم ١٩٣٧ - ١٩٣٨ عن أجزاء من المنطقـة الممتدة بمحـاذاة السور الشمـالى الحالى عند باب العمـود إلى الشرق منه، وأشرف (جـونز) على حفـريات القلعة فى الفترة ما بين ١٩٣٤ - ١٩٤٠م.

ويظهر أن أعمال التنقيب فى القدس قد توقفت لمدة تزيد على عشرين عـامًـا، إلى أن واصلتـهـا فى عـام ١٩٦٢ - ١٩٦٧ (كـاثـلين كنيـون) بالاشتراك مع (رولاند ديفو) فى الهضبة الجنوبيـة الشرقية فوق منطقة عين سلوان وفى المرسـتـان وحى الأرمـن وباب العـمـود، ومنذ الاحـتـلال الإسـرائيلى للقـدس عـام ١٩٦٧ والحـفـريات تجـرى على قـدم وسـاق وباستـمرار فى مناطق مـتعددة من المدينة للكشف عـن المخلفات الآثارية التى يحاول الصـهاينة ربطهـا بمروريات التوراة، خـاصة بعد أن عـجزت بعثـات التنقيب السابـقة عن الظفر بما يطمـعون فيـه، وأضحت القضـية بالنسبـة لهم قضيـة حياة أو مـوت.. وتحول الحمـاس إلى هوس مرضى

وهاجس وطنى، وأعلنت حالة الاستنفار على أشدها، وهيأوا لها كل ما تحتاجه من إمكانات، إلا أن مصير جهود هذه البعثات أو الغزوات الجديدة كان نفس مصير سابقاتها، ومنها الحفريات التى قام بها المخربون الصهاينة (مازار) و(عميران) و(إيتان)، وكذلك (افيجاد) و(أفى يوناح) و(باحات) و(بروشى) وغيرهم من المخربين الذين ارتكبوا أفظع الجرائم فى حق الآثار الخاصة بالشعب الفلسطينى طوال حقبات تاريخه».

ولم تكن نتيجة الحفريات التى قامت على قدم وساق - وما زالت - فى القدس، «صفعة رنانة» على وجه الزاعمين بيهودية أثر بعينه، بل كانت «ضربة قاضية» لكل مدع بوجود «بقايا يهودية» فى المناطق التى يزورون لها هوية يهودية عتيقة، يقول فيصل الخيرى فى مقاله السابق:

«كل الشعوب والأمم التى كانت لها صلة بالقدس وما حولها، تركت آثاراً لها شاهدة على تلك الصلة، إلا اليهود، فلم يعثر لهم على أية آثار فى القدس.. النطوفيون والغسوليون والعموريون والكنعانيون (اليبوسيون) والمصريون والهكسوس والبابليون والآشوريون والفرس واليونان والرومان، كل هؤلاء قد تركوا فى القدس وما حولها آثاراً تدل عليهم إلا اليهود، لم يستطع اليهود العثور على أى أثر يؤكد أطروحاتهم فى وجود أناس يسمون «إسرائيليين أو عبريين»، وما وجد من آثار يهودية تعود فى أقدمها إلى القرن الثانى ق.م، وهى الفترة التى تكونت فيها الديانة اليهودية.

وأخيراً.. وتحديداً قبل انتهاء يوليو ١٩٩٨، أعلن فريق من علماء الآثار العاملين فى دائرة الآثار الإسرائيلية بطلان الادعاء بأن «داود التوراتى» هو الذى أنشأ القدس، ومما قاله العالم (رونى ريك) فى هذا الصدد: «آسف.. لأن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا فى هذه

القصة». . وقد أعقب ذلـك ما أسلفناه من تصريح (زئيف هرتسوج) ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل الأكثر خطورة فى الأمر أن البـعثات التنقيبية «غربية وإسـرائيلية» قد غضت الطرف عن فلسطـين، وشدت الرحال إلى اليمن وأفغانستان وغيرها، لتيقـن الجميع بأن ساعة التوراة قد دنت، فيما يخص فلسطين بالطبع».

لقد ظهر فى الآونـة الأخيرة اتجاه جديد فى العـلاقة بين آثار فلسطين والأردن وعلاقتها بالكتاب المقدس، حيث مثل هذا الاتجاه كل من: لاب، دوفو، ديغر، فرانكن، وهم من رجـال الدين العاملين بالآثار، وقد نادوا بالفصل الكامل بين الآثار الأردنيـة - الفلسطينية والعهد القـديم، بحجة أنهمـا يختلفان اخـتلافًا جـوهريًا من حيث النوعـية، فالآثار ملمـوسات مادية، بينما الكتاب المقدس كتاب روحى دينى.

وإذا كانت هذه الدعـوة ذات ظاهر يوحى بالرغبـة فى استقـلالية هذه الآثار عن الكتاب المقـدس، إلا أنها فى حقيقـة الأمر محاولة مفـضوحة لتجنب المجابهـة بينهما بعد أن برزت التناقـضات الكثيرة بين المكتـشفات الأثرية من جانب، وروايات العهد القديم من جانب آخر.

وجدير بالذكـر أن الآثار الفلسطينيـة لا تدل بشواهدها على مـخلفات يهودية، لسبب بسيط للغاية، وهو عدم استقرار اليهود على أرض فلسطين بوجه عام[١].

---

(١) المزيد حول آثار فلسطين وتناقضاتها مع أسفار العهـد القديم فى: حسين عمر حمادة، آثار فلسطين، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣، ص: ٨٦ وما بعدها.

نحن - إذن - أمام قضية شائكة، مزاعم يهودية تستند إلى نصوص توراتية - لا نملك ما يؤكدها - تدعى وجود آثار استيطانية يهودية منذ العهد الداودى - السليمانى، وأدلة مادية - لا نملك التقليل من شأنها - تؤكد زيف الادعاءات السابقة.

والمشكلة ليست مشكلتنا نحن، فنحن نعتقد بصدق الأخيرة، ونقف متشككين تجاه الأولى، وإنما المشكلة تكمن فيمن يصدق الزعم اليهودى - وهم كُثْرٌ - ويتغاضون عن العلم، وهم يدعون أنهم أربابه وصنّاعه.

* * *

الفصل الثانى

يهـوه وأورشليـم

أو

الـرب والمدينـة

لا تتفق تلك المكانة المبالغ فيـها لأورشاليم فى الفكر الإسرائيلى وذلك التغاضى «المتعمد» عن ذكر مكانتها عند الرب - يهوه - إله بنى إسرائيل.

نعم، ذكرت المدينة منذ بدايات ظهور إبراهيم (عليـه السلام) فى سفر التكوين، لكن من الصـعب أن نستخـرج كلمة واحدة تدل على تفـضيل لهذه المدينة من قبل إله إسرائيل، أو آمرًا بتقديسها.

الأسفار الخمسة لا تشير إلى أية «خـاصية» تتمتع بها المدينة، ويمضى موسى إلى ربه دون أن يذكرها ولو بشطر كلمة.

يشوع والقـضاة، لا يخبـرونا فى سفريهـما عن أورشليم شيـئًا يوحى بقداسة المدينة أو خصوصيتها.

سفرا صموئيل، بما فيهما من أحداث، وما تضمناه من شخصيات، لا نشم رائحة المدينة من قـريب أو بعيد فى إصـحاحاتهمـا التى بلغت نحو خمسة وخمسين إصحاحًا.

فصموئيل النبى لا يذكرها على الإطلاق، وربما لا يعرفها.

وشاؤل الملك لا يخبـرنا بشىء عنها، ولا تبدو على خارطة اهتـماماته العسكرية والملكية.

وداود، خلال صراعه مع شاؤل حمـيه، ومع الفلسطينيين فى المنطقة، لا يبدى أدنى اهتمام بالمدينة، لا عسكريًا، ولا سـياسيًا، ولا دينيًا، وهو رجل الحرب والـسياسـة، والذى اعتـمده الرب - يهـوه - مخلصًـا لبنى إسرائيل - شعبه المدلل - من أيدى جميع أعدائهم (صموئيل الثانى ٣/١٨).

ولقد «شـاخ داود وتقدم فى الأيام» (ملوك أول ١/ ١) ولـم يذكـر بعد أورشليم بأية وصـية من قبل الرب، وعـندما وصى داود ابنه سليـمان لم يذكر أورشليم بأى ميزة أو نوع من قداسة اختصها بها الرب.

ويموت داود، ويأتى سليمان ليرث ملك أبيه.

ويرتكب سليمان - وفـق رواية سفر الملوك الأول (١١/ ١ - ١٠) كل الموبقات المهلكات فى أورشليم، ولا يحرك الرب - يهوه - ساكنًا لقداسة المدينة.

وفجأة، وبلا سابق إنذار، يحدث التحول الكبير الخطير، ويختار الرب أورشليم، هكذا فى عبارة عارضة.

«فغضب الرب على سلميـان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل. . . فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلـك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيـتك بها، فإنى أمزق المملكـة عنك تمزيقًا وأعطيها لعـبدك، إلا إنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها، على أنى لا أمزق منك المملكة كلها، بل أعطى سبطًا واحدًا لابنك لأجل داود عبدى، **ولأجل أورشليم التى اخترتها»**. (ملوك أول ١١/ ٩ - ١٣).

رحمة الرب بسلـيمان، وعدم تمزيق المملكة فى «حيـاة عينه»، إنما هى من أجل داود، وربما نقبل هذه «الوسـاطة» التى تمتع بها سليمان، نتـيجة تاريخ أبيه الحافل، وقلبـه المتعلق بالرب، وجهاده فى سـبيل وحدة مملكة إسرائيل.

لكننا نجد الفـقرة الأخيرة من الـنص السابق وقد أقحـمت فيها عـبارة يظهر بوضوح انتحالها.

فإكرام الرب لداود شىء له «سوابق» فى النصوص، لكن اختيار الرب لأورشليم، وتكريمها أو «تشفيعها» فى سليمان أمر قفز فجأة إلى النص.

لم يسبق لإله إسرائيل أن اختار أورشليم.

ولم يسبق له أن بين لنا مكانتها وقدسيتها.

ولم يبين لنا - كذلك - أسباب هذا الاختيار المفاجئ.

ومن ثم، فنحن نتشكك - بيقين بالغ - فى أصالة العبارة الأخيرة من النص السابق.

وتتكرر تلك العبارة تكرارًا يوحى بأن واضعها قد أدرك إضافتها، فراح يحشرها - فى نفس الإصحاح - حشرًا، لإقناع الناس بها، «وكأن المريب يكاد يقول خذونى»:

«من أجل عبدى داود، ومن أجل أورشليم، المدينة التى اخترتها»

(١١/ ٣٢).

«أورشليم، المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع فيها اسمى»

(١١/ ٣٦).

ولم يذكر لنا، لا الرب، ولا واضع العبارة، متى تم الاختيار، ولا أسبابه.

من هنا، يسعى واضع عبارة الاختيار إلى تزيين السفر بها، وتذكير الناس بعملية الاختيار، فى محاولة واضحة منه لترسيخ هذه الصورة فى الأذهان.

تتضح هذه الإضافة «الجبرية» فى نص كالتالى:

«وأما رحبعـام بن سليمان فملك فى يهودا، وكان رحـبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك، وملك سبع عشرة سنة فى **أورشليم المدينة التى اختارها الرب** لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل واسم أمه نعمة العمونية» (ملوك أول ٢٤/ ٢١).

فالحديث فى الـفقرة السابقة يتـمحور حول حـدث تاريخى بعينه، هو تولى رحبعام بن سليـمان الملك فى أورشليم، ليس ثمة موضع لكلام من قـبل الرب، ولكن، لما كانت عـملية اخـتـيار أورشليم المنسـوبة إلى إله إسرائيل حـديثة العهد فى النصـوص، فقد عـمد واضع النص إلى تذييله بعبارة الاختيار المشهورة، لمزيد من تعميق المفهوم فى النفوس.

ولنتخيل - مثلاً - حذف هذه العبارة «المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فـيها من جميع أسـباط إسرائيل»، وسنجد أن العـبارة - أسلوبيًا - أكثر استقامة.

ويبـدو أن الكاتب قد تيـقن من اسـتقـرار فكرة اختـيار إله إسـرائيل لأورشليـم فى الأذهان، أو ربما حل مـحلـه كـاتب آخــر، إذ توالت الأحـداث، وتوالى الملوك على أورشليم، دون أن نجـد عبـارة الاخـتيـار مذكورة على نحو ما تكررت فى الفقرات المتتالية التى أشرت إليها آنفًا.

وينتهى سفر الملوك الأول، بإصحاحاته الاثنين والعشرين، ويهل علينا السفر الثانى، وفى الإصحاح الحـادى والعشرين منه نجد عودة أخرى إلى عبارة الاختيار:

«**وفى أورشليم التى اخترت** من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد» (٢١/ ٧).

يمكننا أن نشير هنا إلى ملاحظتين:

الأولى - حيث يفيد السياق أن لفظ «أورشليم» قد أصبح معادلاً للفظ «سبط» (أورشليم التى اخترت من جميع أسباط إسرائيل)، ومن ثم يمكن أن نستنتج أن المقصود مـن أورشليم هنا ليس المدينة، وإنما السبط الساكن فيـها وهو سبط يهـوذا، وهو بالفعل السبط الذى اخـتاره الرب منذ داود ليجعل اسمه فيه.

أما الثانية، فهى إضـافة عبارة «إلى الأبد»، ولا نعرف هنا أى «أبد»؟! هل أبد الدهر، أم أبد مملكة داود ونسله؟!

عمومًا، ستجد فى نصـوص كثيرة تالية أن لفظ أورشليم لم يعد يعنى به من قـبل الرب والأنبيـاء تلك المدينة ذات الأسـوار، بقدر مـا يعنى به الساكنون فيها من سبط يهوذا.

وكان لابد لهذا الاختيار مـن توابع، فالرب بنفسه يحمى أورشليم من أجله هو، وأجل داود عبده:

«لذلك هكذا قـال الرب عن ملـك آشور. لا يـدخل هذه المدينة (أى أورشليم) ولا يرمى هناك سهمًـا ولا يتقدم عليها بترس، ولا يقـيم عليها مترسة، فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل، يقول الرب: وأحامى عن هذه المدينة لأخلصـها من أجل نفسى ومن أجل داود عبدى» (ملوك ثان ١٩/ ٣٢ - ٣٤).

ويشدد إله إسـرائيل على موقفه مـن أورشليم فيقول فى مـوضع آخر لحزقيا وهو فى مرض الموت:

«هأنذا أشفيك. . . وأحـامى عن هذه المدينة من أجل نفسى ومن أجل

عبدى داود» (ملوك ثان ٢٠/ ٥ - ٦)[1].

ونحن هنا أمام موقف محير، بل أمام ألغاز.

ما السر وراء الارتباط بين المدينة وداود، مع أنه لم يؤسسها أو حتى يقيم فيها هيكل الرب؟!

هذه واحدة.

والثانية هى حماية الرب لأورشليم والدفاع عنها ضد ملك آشور، بينما تقاعس عن نفس المدينة وخذلها ولم يدفع عنها نبوخذ نصر ولاتيتوس ولا الصليبيين...

وفى سفر أخبار الأيام الثانى ينبئنا إله إسرائيل بأنه قد تكلم إلى داود من قبل وأخبره أنه منذ أن أخرج شعبه من مصر لم يختر مدينة من جميع أسباط إسرائيل لبناء بيت ليكون اسمه فيها، لكنه اختار أورشليم (٦/ ١ - ٩)، وهنا نلحظ أيضًا المعادلة بين أورشليم وأسباط إسرائيل، مما يعنى السبط الساكن أورشليم، وبخاصة أنه يربط بين اختيار أورشليم - السبط الساكن فيها - واختيار داود - الوارد فى نفس النص - فكأن داود خيار من خيار.

ومن المحير - أيضًا - فى عملية الاختيار هذه، أن الرب يرفض أن يبنى داود - وكان قلبه مع الرب دائمًا، أى كان سليم الاعتقاد، كامل الإيمان لمجرد أنه سفك بعض الدماء إذا ما قورن بغيره من ملوك إسرائيل، ويسمح لسليمان ابنه - ولم تطهر يديه تمامًا من الدماء - وهو الذى لم يعبد الله حق عبادته، بل أشرك، وبنى مذابح لشتى الآلهة.

---

(١) وردت عبارة «أحامى عن هذه المدينة...» مرة أخرى فى أشعياء ٣٧/ ٣٥.

من المفـروض أن يوكل بناء بيت الرب للأتقـى والأورع، لكننا هنا - ودون سبب مقنع - نجد العكس.

ويتوالى ذكر عـبارة «المدينة التى اخترتها» أو «المـدينة التى اخترت» فى عملية «غسيل دماغ» لقارئ النصوص[١].

وفى عـمليـة «خـصـخـصـة» أخـرى لـلإله «يهـوه»، بعـد أن تمت «خصخصته» لشعب إسرائيل وحسب، نراه يصبح «إله أورشليم»

(عزرا ٧/ ٢٠).

وتطالعنا فى سفر عزرا - كذلك - كلمة مثيرة للحيرة، وما أكثر حيرة المتمعن فى «حكاوى» الأسفار.

يتضرع عزرا للرب معددًا نعمه قائلاً: «... لم يتركنا إلهنا، بل بسط علينا رحمة أمام ملوك فارس ليعطينا حياة، لنرفع بيت إلهنا ونقيم خرائبه وليعطينا حائطًا فى يهوذا وفى أورشليم» (٩/ ٩).

فهل تمت عـملية خصـخصة أخـرى لمحتويات أورشليم بحـيث انتقى الرب إله إسـرائيل «حائطًـا» فقط فى أورشليم ليـتـبارك به العـائدون من النفى؟!

ويبدو أننا لسنا وحدنا الذين وقفنا مـرتبكين تجاه «الحائط» المذكور، إذ يقول شراح هذه الفقرة.

«حيث إن هذه الكلمة فى أصلـها تختلف عن الكلمة المستـعملة لسور المدينة المذكور فى نحميا، فقد اعتبر الكثـيرون أنها تعبير مجازى للحماية

---

(١) انظر على سبيل المثال سفر أخبار الأيام الثانى ٦/ ١٤، ٣٨، ١٢/ ١٣.

والحراسة، ولكنها استعـملت عن أسوار المدينة فى (ميخا ٧/ ١١) ويوجد فى (عزرا ٤/ ٧ - ٢٣) ما يدل على أن عمل بـناء السور كان يجرى فى ذلك الوقت»[١].

والشرح السـابق لا يستقـيم والسياق الذى يحـمل شكر الكاتب للرب على منحه «الحائط» فى أورشليم، ولو كان المقصود به سور المدينة - كما يزعمون - ما قال: فى أورشليم؛ لأن السور حول المدينة وليس بداخلها.

عمومًـا، تبقى «عملية الشكر» الواردة من أجل «الحـائط» لغزًا يضاف إلى ألغاز أورشليم التـى لم يفسرها لنا الرب منذ أن بدأ عـملية الاختـيار التى هى فى حد ذاتها: لغز الألغاز.

وتقدم لنا المـزامير لوحـات من «الحب الإلهى» و«الغزل اليـهودى» فى أورشليم وصهيون:

فـ«الرب قد أحب أبواب صهيون أكثر من جـميع مساكن يعقوب، قد قيل: بك أمجاد يا مدينة الله» (مزمور ١٨٧/ ٢ - ٣).

لقـد تملك الرب المدينة، بعد أن كـانت مدينة داود (صـموئيل الثـانى ٥/ ٤ - ١٠)، وأحبها أكـثر من أى مدينة يسكن فيها نـسل يعقوب، أما أمجاد المدينة فـلا نعرفها، ولا توضحهـا لنا المزامير أو غيرها، فـأمجادها يبوسية كنعانية على نحو ما أوردنا فى الحديث عن تاريخ المدينة.

والرب لا يكتـفى بحـمـاية أورشليـم، بل «يبنى أورشليم» (مـزمـور

---

(١) انظر: ج ستافـورد رايت، شرح سفرى عزرا ونحمـيا فى «تفسير الكتاب المقـدس» إعداد فرنـس دانلس، دار منشورات النفير، بيروت، ١٩٦٦، ص: ٣٥٠.

٢/١٤٧)، مع أننا رأينا أن الرب لم يمنع عنها بابل، ولولا كورش الفارسى، ربما ما أعيد بناؤها حتى اليوم.

ويحفل سفر إشعياء بما يجيش فى نفس إله إسرائيل تجاه أورشليم، فقرات وفقرات يترنم بها الرب معربًا عن حبه للمدينة ودعمه لها، مجسدة فى صهيون، ففى حوار بين صهيون وإله إسرائيل، يتم تصوير العلاقة بين الجانبين كالعلاقة بين الأم ورضيعها، فعندما تظن صهيون أن الرب قد نسيها يجيبها قائلاً:

«وقالت صهيون قد تركنى الرب وسيدى نسينى، هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها، حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك، هوذا على كفى نقشتك، أسوارك أمامى دائمًا، قد أسرع بنوك، هادموك ومخربوك منك يخرجون، ارفعى عينيك حواليك وانظرى، كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حى أنا يقولُ الرب إنك تلبسين، كلهم كحلى وتتنطقين بهم كعروس، إن خربك وبراريك وأرض خرابك إنك تكونين الآن ضيقة على السكان ويتباعد مبتلعوك، يقول أيضًا فى أذنيك بنو ثكلك: ضيق على المكان وسعى لى لأسكن، فتقولين فى قلبك من ولد لى هؤلاء وأنا ثكلى وعاقر منفية ومطرودة، وهؤلاء من ربَّاهم، هآنذا كنت متروكة وحدى، هؤلاء أين كانوا...

هكذا قال السيد الربُّ ها إنى أرفع إلى الأمم يدى، وإلى الشعوب أقيمُ رايتى، فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن، ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أنى أنا الرب الذى لا يخزى منتظروه...

هل تُسلبُ من الجبار غنيمة وهل يُـفلتُ سبى المنصور، فإنه هكذا قال الرب حـتى سـبى الجبـار يسلب وغنـيمـة العـاتى تفلت، وأنا أخـاصم مـخاصـمك وأخلص أولادك، وأطعم ظالميك لحم أنفسـهم، ويسكرون بدمهم كما من سلاف فيعلم كل بشر أنى أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب» (إشعياء ٤٩/ ١٤ - ٢٥)

وتأتى البشرى من قبل إله إسرائيل لصهيون المخربة المدمرة:

«إن الرب قد عزَّى صهـيون، عزى كل خربها، ويجعل بريتـها كعدن وباديتهـا كجنة الرب، الفـرح والابتهاج يوجـدان فيـها، الحمـد وصوت الترنم» (إشعياء ٥١/ ٣)

لكننا منذ هذه البشرى ونحن ننتظر.

فلم يحـدث ما وعـد به الرب قـديمًا ولا حـديثًا، إذ توالى الخـراب والتدمير على أيدى الرومـان والصليبيين، ولم نجد فيهـا حتى اليوم الفرح والابتهاج الموعودين فى العبـارة السابقة، بل سفك دماء، ونسف منازل، وقتل أبرياء.

ويصور لنا إله إسرائـيل حال أورشليم وموقف أبنائها المتـخاذل، معلنًا انتهاء عصر الدمار والخـراب والهوان (إشعياء ٥١/ ١٧ - ٢٣)، ومع هذا يشهد التاريخ منذ إشـعياء وحتى بداية القرن العشرين، اسـتمرارًا لما وعد الرب بإنهائه.

بل إن الرب يعلن انتهـاء عصر الانتـهاك لأورشليم من قبل النجـسين والغلف (إشعياء ٥٢/ ١)، ومع هذا يستـمر هؤلاء الغلف مسيطرين حتى الفتح الإسلامى للمدينة فى القـرن السابع الميلادى، أى ما يزيد على ألف

سنة من الإعلان الإلهى عن تطهير المدينة.

ويبدو أن الرب قد هاجر من أورشليم بعد خرابها على أيدى بابل، وإن كنا لا نعلم محل إقامته خلال فترة النفى، لكنه سيعود إلى صهيون بعد أن فداها بجبروته وقوته:

«ما أجمل على الجبال قدمى المبشر المخبر بالسلام، المبشر بالخير المخبر بالخلاص، القائل لصهيون قد ملك إلهك، صوت مراقبيك، يرفعون صوتهم، يترنمون معًا؛ لأنهم يبصرون عينًا لعين عند رجوع الرب إلى صهيون، أشيدى، ترنمى معًا يا خرب أورشليم؛ لأن الرب قد عزى شعبه، فدى أورشليم، قد شمر الرب عند ذراع قدسه أمام عيون كل الأمم، فترى كل أطراف الأرض خلاص إلهنا» (إشعياء ٥٢/٧ - ١٠)

وفى خواتيم سفر إشعياء تزداد حرارة الحب الإلهى لأورشليم، وتقوى العلاقة بينها وبين الرب، ويصور الإصحاح الثانى والستون من هذا السفر مكانة صهيون وأورشليم العالية عند الرب على النحو التالى:

«من أجل صهيون لا أسكتُ ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد، فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب، وتكونين إكليل جمال بيد الرب وتاجًا ملكيًا بكفِ إلهك، لا يُقال بعد لك مهجورة ولا يقال بعد لأرضك موحشة، بل تدعين حفصيبة وأرضك تدعى بعولة؛ لأن الرب يُسرُّ بك وأرضك تصير ذات بعل؛ لأنه كما يتزوج الشاب عذراء يتزوجك بنوك، وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك...

على أسوارك يا أورشليم أقمتُ حراسًا لا يسكتون كل النهار وكل

الليل على الدوام، يا ذاكـرى الرب لا تسكتـوا ولا تدعـوه يسكت حـتى يثبت ويجـعل أورشليم تسبيـحة فى الأرض، حلف الرب بيـمينه وبذراع عزتـه قائلاً إنى لا أدفع بعـد قمـحك مأكـلاً لأعدائك، ولا يشـرب بنو الغرباء خـمرك التى تعـبت فيهـا، بل يأكله الذين جنوه ويسبـحون الرب ويشربه جامعوه فى ديار قدسى» (إشعياء ٦٢/١ - ٩).

ومن الفقرات السابقة يتضح لنا أن الرب مصر على عمل المستحيل من أجل إعلاء شأن أورشليم بين الشعوب، مـؤكد على علاقة «التزاوج» بين الرب وأورشليم، وهى علاقة تفيد الانصهار والاندماج بين الزوجين، بعد أن سبق تشبـيه العلاقة كعـلاقة الأم برضيعهـا، وكلها - على أى حال - تفيد الارتباط الوثيق بين الجانبين.

وتنتهى إصحاحات إشعيـاء بكثير من الوعود الإلهية لأورشليم، وهى كلها ذات طابع «يوتوبى» لم يحدث فى تاريخ أورشليم حـتى ساعة كتابة هذه السطور، ولا نعلم إن كانت واقعة أم لا.

وسواء أكانت هذه الوعود لأورشليم كمدينة، أم لليهود الساكنين فيها، فإنها لم تتحقق.

وبعـد هذه الصفـحـات من الحب الإلهى لأورشليم، والغـزل الربانى فيـها، تطالعنا أسفـار العهد القـديم بموقف، بل بمواقف مناقضـة تمامًا لما سبـق، وكأن أورشليم لم تعـد مدينة الله، وسكانهـا لم يعودوا «شـعب الله».

والجانب السلبى فى موقف إله إسرائيل من المدينة لم يكن مفاجئًا، بل أعلن الرب عنه صراحة فى فترة سابقة من تاريخ القوم.

فبعد إصلاحات الملك يوشيا الثورية التى أعاد فيها الأمور إلى نصابها، فأصلح العقائد، وطهر الأرض من رجاسات اليهود، نجد الرب غير راضٍ بما تم، ويتخذ قراره ضد أورشليم دون مراعاة لاختيارها، ولا لبيته الذى بها:

«ولكن الرب لم يرجع عن حمو غضبه العظيم؛ لأن غضبه حمى على يهوذا من أجل جميع الإغاظات التى أغاظه إياها منسى، فقال الرب: إنى أنزع يهوذا أيضًا من أمامى كما نزعت إسرائيل، وأرفض هذه المدينة التى اخترتها أورشليم والبيت الذى قلت يكون اسمى فيه». (الملوك الثانى ٢٣/ ٢٧ - ٢٨).

وفيما يلى نسوق بعض صور «غضب الرب» ورفضه للمدينة وللبيت، إنها ثورة الرب ضد أورشليم والبيت والشعب، يقول النبى إرميا:

«آه يا سيد الرب، حقًا إنك خداعًا خادعتَ هذا الشعب وأورشليم قائلاً: يكون لكم سلام، وقد بلغ السيل النفس، فى ذلك الزمان يقال لهذا الشعب ولأورشليم ريح لافحة من الهضاب، فى البرية نحو بنت شعبى، لا للتذرية ولا للتنقية، ريح أشد، تأتى لى من هذه، الآن أنا أيضًا أحاكمهم... اغسلى من الشر قلبك يا أورشليم لكى تخلّصى. إلى متى تبيت وسطك أفكارك الباطلة... انظروا. اسمعوا على أورشليم، المحاصرون آتون من أرض بعيدة، فيطلقون على مدن يهوذا صوتهم، كحارسى حقل صاروا عليها حواليها لأنها تمردت علىّ، يقول الرب: طريقك وأعمالك صنعت هذه لك، هذا شرك. فإنه مرٌ، فإنه قد بلغ قلبك» (إرميا ٤/ ١٠ - ١٨).

بداية، نود أن نشيـر إلى أن النبى إرميا كان يسـتوطن «عناثوت» وهى «عناتا» الحديثة، وتقع على مـقربة ثلاثة أميال تقريبًا إلى الشـمال الشرقى من أورشليم، وكـانت نبوته فى السنة الثـالثة عـشرة من ملك يؤشـيا بن آمون ملك يهوذا، واستمرت كـذلك فى أيام يهويا قيم بن يوشيا - ملك يهوذا - وحتى السنة الحادية عشرة لصدقيا بن يوشيا - ملك يهوذا - كما عاصرت سبى أورشليم، لقـد استمرت خدمة إرميا نحو خـمسين عامًا، ومن ثم فهى خدمة نبوية «ثرية»، لتعدد ملوك بنى إسرائيل فيها، ولوقوع حدث السبى البابلى الجلل، الذى كـان بمثابة نقطة تحول فى تاريخ هؤلاء القوم.

والفقـرات السابقة من سفـر إرميا تشـير إلى عدة حقـائق على النحو التالى:

١ - خداع الرب للشعب ولأورشليم.

٢ - التـهديد بالخطر القـادم على المدينة وأهلهـا (السبى البـابلى وتدميـر أورشليم).

٣ - انغماس أورشليم - وأهلها - فى الأفكار الباطلة.

٤ - دعوة الرب للمدينة وسكانها من اليهود بالتطهر من الآثام.

٥ - تمرد أورشليم على الرب.

٦ - الخطر القادم إنما هو نتيجة أفعال أورشليم ومن فيها.

٧ - تمكن الخطايا والآثام من النفوس الأورشليمية.

نلاحظ أن الخطاب الربانى قـد وحّد بين اسم المدينة وسـكانها، فـقد يخـاطـب الرب «أورشليم» ويعنى أهـلهـا، ومن هنا جـاءت تحـذيرات

وتهديدات الرب المتوالية لأورشليم.

ويتضح من «الهجة» إله إسرائيل فى تعامله مع المدينة وأهلها، أن الرب «غاضب» إلى حد كبير من أفعالهما، وأنه سيوقع بهما العقاب القاسى، دون مراعاة «لقداسة» المدينة أو «لقداسة» الشعب، واختيارهما «كمدينة الله» و«كشعب الله».

لقد استحقت أورشليم غضب الرب وعقابه لها بالتخريب والتدمير لانحراف أهلها جميعًا، دون استثناء، هكذا يقول الرب:

«طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا فى ساحاتها، هل تجدون إنسانًا أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها، وإن قالوا حى هو الرب فإنهم يحلفون بالكذب، يارب أليست عيناك على الحق، ضربتهم فلم يتوجعوا، أفنيتهم وأبوا قبول التأديب، صلبوا وجوههم أكثر من الصخر، أبوا الرجوع» (إرميا ٥/ ١ – ٣).

تلك صورة أورشليم وأهلها، ليس فيها إنسان واحد عامل بالعدل، أهلها كذبة، يعاندون الرب ويصرون على الكفر.

وتأتى الإنذارات والتهديدات للمدينة، وتتحول «مدينة الله» إلى شىء بغيض:

«الجميلة اللطيفة ابنة صهيون (أورشليم) أهلكها» (إرميا ٦/ ٢).

«لأنه هكذا قال رب الجنود: اقطعوا أشجارًا، أقيموا حول أورشليم مترسة هى المدينة المعاقبة، كلها ظلم فى وسطها... تأدبى يا أورشليم لئلا تجفوك نفسى، لئلا أجعلك خرابًا، أرضًا غير مسكونة»

(إرميا ٩/ ٦– ٨).

والاختـيار الإلـهى لأورشليم مشـروط باتباع سـبل الرب والسيـر فى طريقه، فإن لم يتحقق هذا، فلتهلك أورشليم، وليهلك من فيها:

«أما ترى مـاذا يفعلون فى مـدن يهوذا وفى شـوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطبًا والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكًا لملكة السـماوات ولسكب سكائـب لآلهة أخـرى لكى يغيظونى، أفـإياى يغيظون، يقـول الرب، أليس أنفسهم لأجل خزى وجـوههم، لذلك قال السيـد الرب، ها غضـبى وغيظى ينسكبـان على هذا الموضع على الناس وعلى البهائم وعلى شجر الحقل، وعلى ثمر الأرض فيتقدان ولا ينطفئان» (إرميا ٧/ ١٧ - ٢٠).

فـمدينة الله إذن تعـج بمظاهر الشرك، إن أهلهـا يوقـدون ويقدمـون القرابين للآلهة الأخرى، إنهم يغيظون الرب، ولقد نفد صبر الرب فاتخذ قراره بحلول غـضبه على المدينة ومن فـيها مـتمثـلاً فى الإحراق الدائم: «فيتقدان ولا ينطفئان».

غريب هذا الموقف الربـانى تجاه مدينتـه وشعبـه المختارين، وبخـاصة عندما نقارن موقفه الإيجابى الذى سبقت الإشارة إليه.

ولكن ليس بغريب على من يربط بين النصـوص ليعلم من خلال هذا الربط أن هذا الاختيار - للمدينة وللشـعب - ليس على إطلاقه كما يبدو من ظاهر بعض نصوص العهد القديم، ولكنه اختيار مشروط، فإذا أخلت المدينة وأهلها بشرط من هذه الشروط، فليس ثمة اختيار.

ونحن فى هذا المقام لا نحصى «تجاوزات» أورشليم وأهلها، وخرقهما الدائم لشروط الاختيار، وإنما نختار فقط بعض النماذج والشواهد.

يقول إله إسرائيل:

«هأنذا أملأ كل سكان هذه الأرض والملوك الجالسين لداود على كرسيه والكهنة والأنبياء وكل سكان أورشليم سكرًا، وأحطمهم الواحد على أخيه، الآباء والأبناء معًا، يقول الرب: لا أشفق ولا أترأف ولا أرحم من إهلاكهم» (إرميا ١٣/ ١٣- ١٤).

هكذا يكون مصير أورشليم وملوكها وكهنتها وأنبيائها وسكانها، لقد فقدت - إذن - كل مقومات الاختيار المزعوم.

وتأتى «براءة» من الرب من أورشليم لكثرة آثامها وأرجاسها:

«يقول الرب: لأنك نسيتنى واتكلت على الكذب، فأنا أيضًا أرفع ذيليك على وجهك فيرى خزيك، فسقك وصهيلك ورذالة زناك على الآكام، فى الحقل قد رأيت مكرهاتك، ويل لك يا أورشليم، لا تطهرين، حتى متى بعد» (إرميا ١٣/ ٢٥- ٢٧).

أى كراهية ربانية، وغضب إلهى بعد تلك اللعنات والويلات لمدينة الله وأهلها؟!

وغضب الرب وكراهيته ليست سمات وصفات عارضة فى موقف إله إسرائيل، فهذا الموقف السلبى هو موقف أبدى، هكذا يخبرنا رب إسرائيل:

«لأنكم قد أضرمتم نارًا بغضبى تتقد إلى الأبد» (إرميا ١٧/ ٤).

فغضب الرب وناره يمثلان موقفًا إلهيًا أبديًا غير مرتبط بظرف وحين.

وتتوالى إنذارات الرب لأورشليم وسكانها، إنذارات تجعل الولدان شيبًا

(إرميا ١٨/ ١١- ١٢، ١٩/ ٧ - ١٣، ٢٣/ ١٠، ٢٦/ ١٨ . . .).

ولم تعد أورشليم مصدراً للنور الربانى، والشريعة الإلهية، بل «من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض» (إرميا ٢٣/ ١٥).

«لقد أخطأت أورشليم خطية، من أجل ذلك صارت رجسة، كل مكرميها يحتقرونها؛ لأنهم رأوا عورتها وهى أيضًا تتنهد وترجع إلى الوراء، نجاستها فى أذيالها، لم تذكر آخرتها وقد انحطت انحطاطًا عجيبًا» (مراثى إرميا ١/ ٨ - ٩).

«صارت أورشليم نجسة» (مراثى إرميا ١/ ١٧).

إن «مراثى إرميا» تسجل لنا صوراً متعددة من انتقام الرب - إله إسرائيل - من صهيون وأورشليم، لم تعد بعد مدينته، ليست ابنته التى ترتبط بأمها التى ولدتها، وليست - كذلك - الزوجة التى تلتصق بزوجها، القرائن والأدلة والنصوص والشواهد، كلها توحى «بالسقوط»، السقوط الأبدى على نحو ما ورد فى النصوص التى سقناها من قبل.

وبعد وقوع النفى لسكان أورشليم، والتدمير للمدينة، وبقاء من بقى من بنى إسرائيل فيها، نجده الرب يهجر أورشليم، ويختار أن يكون مع المنفيين لا مع الباقين، وربما كان قرار «يهوه» بذلك يعنى تخليه عن صهيون، وأن الخراب آت لا ريب فيه إن عاجلاً أو آجلاً[1].

ومن يتطلع فى أحكام الرب التى أصدرها ضد أورشليم وأهلها - كما دونت فى سفر حزقيال (٥/ ٥- ١٧) - لا يجد ذرة من حب إلهى

(١) كارين ارمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥٣.

للمدينة وأهلها، الأمر الذى يثير العجب والدهشة من إصرار الإسرائيليين على الاعتقاد بأن أورشليم هى «مدينة الله» التى اختارها ليسكن فيها، وأن اليهود هم «شعب الله» الذى اختاره والتصق به وفضله على سائر الأمم والشعوب:

«هكذا قال السيد الرب، هذه أورشليم فى وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضى، فخالفت أحكامى بأشر من الأمم وفرائضى بأشر من الأراضى التى حواليها؛ لأن أحكامى رفضوها وفرائضى لم يسلكوا فيها، لأجل ذلك هكذا قال السيد الرب، من أجل أنكم ضجحتم أكثر من الأمم التى حواليكم ولم تسلكوا فى فرائضى ولم تعملوا حسب أحكامى ولا عملتم حسب أحكام الأمم التى حواليكم، لذلك هكذا قال السيد الرب، ها إنى أنا أيضًا عليك وسأجرى فى وسطك أحكامًا أمام عيون الأمم، وأفعل بك ما لم أفعل وما لن أفعل مثله بعد بسبب كل أرجاسك، لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء فى وسطك والأبناء يأكلون آباءهم وأجرى فيك أحكامًا وأذرى بقيتك كلها فى كل ريح، من أجل ذلك حى أنا يقول السيد الرب من أجل أنك قد نجست مقدسى بكل مكرهاتك، وبكل أرجاسك فأنا أيضًا أجز ولا تشفق عينى وأنا أيضًا لا أعفو، ثلثك يموت بالوباء والجوع يفنون فى وسطك، وثلث يسقط بالسيف من حولك وثلث أذريه فى كل ريح وأستل سيفًا وراءهم، وإذا تم غضبى وأحللت سخطى عليهم، وتشفيت يعلمون أنى أنا الرب تكلمت فى غيرتى إذا أتممت سخطى فيهم، وأجعلك خرابًا وعارًا بين الأمم التى حواليك أمام عينى كل عابر، فتكونين عارًا ولعنة وتأديبًا

ودهشًا للأمم التى حواليك إذا أجريت فيك أحكامًا بغضب وبسخط وبتوبيخات حامية، أنا الرب تكلمت، إذا أرسلت عليهم سهام الجوع الشريرة التى تكون للخراب التى أرسلها لخرابكم وأزيد الجوع عليكم وأكسر لكم قوام الخبز، وإذا أرسلت عليكم الجوع والوحوش الرديئة فتثكلك ويعبر فيك الوبأ والدم وأجلب عليك سيفًا، أنا الرب تكلمت» (حزقيال ٥/ ٥- ١٧).

وفى إحصاء ليس له مثيل فى أسفار العهد القديم، يسجل لنا الإصحاح السادس عشر من سفر حزقيال موضوعين رئيسين:

الأول - هو نعم وأفضال الرب على أورشليم.

الثانى - انحرافات أورشليم وضلالاتها.

إنها «صحيفة سوابق» لمدينة الله المختارة المقدسة، إنها محاكمة من الرب للمدينة العاصية، تنتهى بنفى سكانها وتدمير أسوارها وبيوتها، ويبدو من آخر الإصحاح أن الرب ما زال على أمل فى تقويم مدينته وأهلها، فراح يذكرها بالعهد، ثم يختتم الإصحاح بتلويح منه بالمغفرة، الأمر الذى يشكل أمامنا نوعًا من التناقض فى الموقف اليهودى الإلهى تجاه المدينة.

بعد كل التهديدات بالويل والثبور.

وبعد كل هذا الإحصاء الذى استمر على مدى سفرى عزرا وحزقيال لرجاسات وانحرافات أورشليم وأهلها.

وبعد أن قطع الرب - من قبل - حكمًا يقضى بخراب أورشليم إلى الأبد.

بعد كل هذا نجد طريق الغفران.

فهل تنتمى تلك الفقرة الأخيرة من هذا الإصحاح، إلى نفس الكاتب الذى سجل جميع جرائم المدينة وأهلها فى «الصحيفة الجنائية» التى نسوقها الآن؟:

«وكانت إلىَّ كلمةُ الرب قائلة: يا ابن آدم عرف أورشليم برجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب لأورشليم، مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوك أمورى وأمك حثية، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ولم تغسلى بالماء للتنظف، ولم تملحى تمليحًا ولم تقمطى تقميطًا، لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لترق لك، بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت، فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك فقلت لك بدمك عيشى، قلت لك بدمك عيشى، جعلتك ربوة كنبات الحقل فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان، نهد ثدياك ونبت شعرك وقد كنت عريانة وعارية، فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب، فبسطت ذيلى عليك وسترت عورتك وحلفت لك ودخلت معك فى عهد يقول السيد الرب فصرت لى، فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت، وألبستك مطرزة ونعلتك بالتُخَس وأزرتك بالكتان وكسوتك بزًا، وحليتك بالحلى فوضعت أَسورة فى يديك وطوقًا فى عنقك، ووضعت خزامة فى أنفك وأقراطًا فى أذنيك وتاج جمال على رأسك، فتحليت بالذهب والفضة ولباسك الكتان والبز والمطرز، وأكلت السميذ والعسل

والزيت وجملت جـدًا جدًا فصلحت لمـملكة، وخرج لك اسم فى الأمم لجمالك؛ لأنه كان كاملاً ببهائى الذى جعلته عليك يقول السيد الرب:

فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له، وأخذت من ثيـابك وصنعت لنفسك مـرتفعات مـوشاة وزنيت عليها، أمرٌ لم يأت ولم يكن، وأخذت أمتعة زينتك من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتـك وصنعت لنفسك صور ذكـور وزنيت بها، وأخـذت ثيابك المطرزة وغطيـتهـا بها ووضـعـت أمامـها زيتى وبخـورى، وخبـزى الذى أعطيتك السمـيذ والزيت والعسل الذى أطعمتك وضـعتها أمامـها رائحة سرور وهكذا كان يقول السيد الرب.

أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لى وذبحتـهم لها طعامًا، أهو قليل من زناك، أنك ذبحت بنيَّ وجـعلتـهم يجـوزون فى النار لهـا، وفى كل رجاسـاتك وزناك لم تذكـرى أيام صبـاك إذ كنت عريانة وعـارية وكنت مدوسة بدمك، وكـان بعد كل شرك، ويلٌ ويلٌ لك يقـول السيد الرب، أنك بنيت لنفسك قـبة وصنعت لنفسك مرتفـعة فى كل شارع، فى رأس كل طريق بنيت مرتفـعتك ورجست جمالك وفـرَّجت رجليك لكل عابر وأكثـرت زناك، وزنيت مع جيـرانك بنى مصر الغـلاظ اللحم وزدت فى زناك لإغاظتى.

فهـأنذا قد مددت يدى علـيك ومنعت عنك فريضتـك وأسلمتك لمرام مبغضاتك بنات الـفلسطينيين اللواتى يحجلن من طريقك الرذيلة، وزنيت مع بنى آشور إذ كنت لم تشـبعى فزنيت بهم ولم تشبعى أيضًـا، وكثَّرت زناك فى أرض كنعان إلـى أرض الكلدانيين وبهذا أيضًـا لم تشبـعى، ما

أمرض قلبك يقول السيد الرب إذ فعلت كل هذا فعل امرأة زانية سليطة ببنائك قبتك فى رأس كل طريق وصنعك مرتفعتك فى كل شارع، ولم تكونى كزانية بل محتقرة الأجرة، أيتها الزوجة الفاسقة تأخذ أجنبيين مكان زوجها، لكل الزوانى يعطون هدية، أما أنت فقد أعطيت كل محبيك هداياك ورشيتهم ليأتوك من كل جانب للزنا بك، وصار فيك عكس عادة النساء فى زناك إذ لم يزن وراءك، بل أنت تعطين أجرة ولا أجرة تعطى لك فصرت بالعكس.

فلذلك يا زانية اسمعى كلام الرب، هكذا قال السيد الرب، من أجل أنه قد أنفق نحاسك وانكشفت عورتك بزناك بمحبيك وبكل أصنام رجاساتك ولدماء بنيك الذين بذلتهم لها، لذلك هأنذا أجمع جميع محبيك الذين لذذت لهم وكل الذين أحببتهم مع كل الذين أبغضتهم فأجمعهم عليك من حولك وأكشف عورتك لهم لينظروا كل عورتك، وأحكم عليك أحكام الفاسقات السافكات الدم، وأجعلك دم السخط والغيرة، وأسلمك ليدهم فيهدمون قبتك ويهدمون مرتفعاتك وينزعون عنك ثيابك ويأخذون أدوات زينتك ويتركونك عريانة وعارية، ويصعدون عليك جماعة ويرجمونك بالحجارة ويقطعونك بسيوفهم، ويحرقون بيوتك بالنار ويجرون عليك أحكامًا قدام عيون نساء كثيرة، وأكفك عن الزنا وأيضًا لا تعطين أجرة بعد، وأحل غضبى بك فتنصرف غيرتى عنك فأسكن ولا أغضب بعد، من أجل أنك لم تذكرى أيام صباك بل أسخطتنى فى كل هذه فهأنذا أيضًا أجلب طريقك على رأسك يقول السيد الرب فلا تفعلين هذه الرذيلة فوق رجاساتك كلها.

هو ذا كل ضارب مثل يضـرب مثلاً عليك قائلاً مـثل الأم بنتها، ابنة أمك أنت الكارهة زوجـها وبنيـهـا، وأنت أخت أخواتك اللواتى كـرهن أزواجهن وأبناءهن، أمكن حثية وأبوكن أمـورى، وأختك الكبرى السامرة هى وبناتها الساكنة عن شمالك، وأختك الصغرى الساكنة عن يمينك هى سدوم وبناتها، ولا فـى طريقهن سلكت ولا مثل رجاساتـهن فعلت كأن ذلك قليل فقط ففـسدت أكثر منهن فى كل طرقك، حىٌ أنا يقـول السيد الرب: إن سدوم أختك لم تفعل هى ولا بناتهـا كما فعلت أنت وبناتك، هذا كان إثم أختك سدوم الكبرياء والشبع من الخبز وسلام الاطمئنان كان لها ولبناتها ولم تشدد يد الفقير والمسكين، وتكبرن وعملن الرجس أمامى فنزعـتـهن كـما رأيـت، ولم تخطئ السـامـرة نصف خطاياك، بل زدت رجـاساتك أكـثـر منهن وبرَّرت أخـواتك بكل رجاسـاتك التى فـعلت، فاحـملى أيضًـا خزيك أنت القـاضيـة على أخواتك، بخطاياك التى بـهـا رجست أكـثر منهن هنَّ أبـرُّ منك، فاخجـلى أنت أيضًا واحمـلى عارك بتبريرك أخواتك، وأرجع سبيهنَّ سبى سدوم وبناتها وسبى السامرة وبناتها وسبى مـسبييك فى وسطهـا لكى تحملى عارك وتخزى من كل مـا فعلت بتعـزيتك إياهن، وأخواتك سـدوم وبناتها يرجعن إلى حـالتهنَّ القـديمة والسامـرة وبناتها يرجعن إلى حـالتهنَّ القديمـة وأنت وبناتك ترجعن إلى حالتكنَّ القديمة، وأختك سدوم لم تكن تذكر فى فمك يوم كبريائك قبل ما انكـشف شرك كمـا فى زمان تعـييـر بنات آرام وكل من حولهـا بنات الفلسطينيـين اللواتى يحتقـرنك من كل جهة، رذيلتك ورجـاساتك أنت تحملينها يقول الرب:

لأنه هكذا قال السيد الرب: إنى أفعل بك كما فعلت إذا ازدريت بالقسم لنكث العهد، ولكنى أذكر عهدى معك فى أيام صباك وأقيم لك عهدًا أبديًا، فتتذكرين طرقك وتخجلين إذ تقبلين أخواتك الكبر والصغر وأجعلهن لك بنات ولكن لا بعهدك، وأنا أقيم عهدى معك فتعلمين أنى أنا الرب، لكى تتذكرى فتخزى ولا تفتحى فاك بعد بسبب خزيك حين أغفر لك كل ما فعلت يقول السيد الرب» (حزقيال ١٦).

ويعود النبى حزقيال ليؤكد على رجاسات أورشليم وموبقاتها، وحزقيال لا يتكلم إلا بلسان الرب إذ يقول:

«وكان إلىَّ كلام الرب قائلاً: وأنت يا ابن آدم هل تدين هل تدين مدينة الدماء، فعرفها كل رجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب: أيتها المدينة السافكة الدم فى وسطها ليأتى وقتها الصانعة أصنامًا لنفسها لتتنجس بها، قد أثمت بدمك الذى سفكت، ونجست نفسك بأصنامك التى عملت، وقربت أيامك، وبلغت سنيك فلذلك جعلتك عارًا للأمم وسخرة لجميع الأراضى، القريبة إليك والبعيدة عنك يسخرون منك يا نجسة الاسم يا كثيرة الشغب، هو ذا رؤساء إسرائيل كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك لأجل سفك الدم، فيك أهانوا أبًا وأمًا، فى وسطك عاملوا الغريب، بالظلم، فيك اضطهدوا اليتيم والأرملة، ازدريت أقداسى ونجست سبوتى، كان فيك أناس وشاة لسفك الدم وفيك أكلوا على الجبال، فى وسطك عملوا رذيلة، فيك كشف الإنسان عورة أبيه، فيك أذلوا المتنجسة بطمثها، إنسان فعل الرجس بامرأة قريبة، إنسان نجس كنته برذيلة، إنسان أذل فيك أخته بنت أبيه، فيك أخذوا الرشوة لسفك الدم،

أخذت الربا والمرابحة وسلبت أقرباءك بالظلم ونسيتنى يقول السيد الرب»
(حزقيال ٢٢/ ١ - ١٢).

ها هى مـرة أخرى يذكّـر إله إسـرائيل كل قـارئ لكلماتـه بما فعلتـه أورشليم، وما أصدره الرب بشأنها.

أورشليم قد أصبحت «المدينة السافكة الدم».

أورشليم «نجسة الاسم».

وأورشليم «كثيرة الشغب».

وأورشليم قد أصبحت كذلك «عارًا للأمم وسخرة لجميع الأراضى».

فهل يمكن لنا بعد كل تلك الصفات أن نزعم بقداسة المدينة، وقداسة أهلها؟!

ومع أن سفر حزقيال قد استمر فى إحصاء رجاسات أورشليم، وتهديد الرب لها بالانتـقام منها (٢٣/ ١١ - ٤٩)، إلا أن تحـولاً مفاجئًـا قد طرأ على موقف الـرب تجاه أورشليم، وعدنا مـرة أخرى إلى «روح إيجـابية» يهوية، حركتها مواقف الأعداء من المدينة: «من أجل أن صور قالت على أورشليم هه قد انكسرت مصاريع الشعوب» (حزقيال ٢٦/ ٢).

مجرد مـوقف عدائى من قبل مملكة مجـاورة تجاه أورشليم، جعل إله إسرائيل يقرر الانتقام من الأعداء، حبًا لأورشليم وعشقًا لها.

هل هى روح الغيـرة التى دبت فى الرب فـجأة فلم يقـبل تهـديد أو سخرية «صور» من أورشليم؟

لكنه قبل تهديد، بل تخريب المدينة على أيدى البابليين ولم يغر على مدينته، كما أنه هو الذى جعل أورشليم محل سخرية واستهزاء الأمم، على نحو ما جاء فى النصوص التى سقناها حتى الآن.

فى الحقيقة، لا نجد تبريراً معقولاً لهذا التحول، ويبقى لغزاً محيراً من ألغاز المدينة.

ومع هذا، نجد الرب ينتقم لعصيانه، فيعود إلى ما كان عليه قائلاً:

«هكذا قال الرب: من أجل ذنوب يهوذا الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنه؛ لأنهم رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه، وأضلتهم أكاذيبهم التى سار آباؤهم وراءها، فأرسل ناراً على يهوذا فتأكل قصور أورشليم» (عاموس ٢/ ٤ - ٥).

وإذا كان هذا هو ديدن إله إسرائيل تجاه أورشليم: كلما رفضت الناموس ولم تحفظ شرائع الرب، استحقت الحرق والخراب، فهل قبلت أورشليم هذا الناموس وحفظت شرائع الرب فى العصر الحاضر؟، أم لا تنطبق أحكام الرب على الحاضر من التاريخ وتقتصر على الماضى منه؟

إن الرب يتوعد دائماً أورشليم وأهلها إذا ما خالفوا أوامره، لم يكن ذلك الوعيد قاصراً على زمن دون آخر، أو جاء به نبى دون آخر، بل هى قاعدة عامة؛ فقد جاء فى سفر صفنيا:

«ويل للمتمردة المنجسة، المدينة الجائرة (أورشليم)، لم تسمع الصوت، لم تقبل التأديب، لم تتكل على الرب، لم تتقرب إلى إلهها، رؤساؤها فى وسطها أسود زائرة، قضاتها ذئاب مساءٍ لا يبقون شيئًا إلى الصباح؛

أنبياؤها متفاخرون أهل غدرات، كهنتها نجسوا القدس، خالفوا الشريعة».

(٣/ ١ - ٤).

ثم عودة أخـرى إلى عالم المتناقضـات، يعود الفرج للمـدينة السافكة الدم، نجسة الاسم، فـالرب يخلصها، ويدخل السرور إلى قلبهـا، ويعيد المنفيين، ويفعل الأعاجيب من أجل أورشليم.

(صفنيا ٣/ ١٤ - ٢٠).

ويسجل لنا سفـر زكريا مزيدًا من التناقضات الإلهـية فى مواقف الرب يهوه تجاه أورشليم.

فهو لا يرحم المدينة (١/ ١٢).

ويغار على أورشليم وصهيون «غيرة عظيمة» (١/ ١٤).

ثم. . ثم يعود مرة أخرى ليرحمها ويختارها:

«هكذا قال الرب: قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم، فيبنى بيتى فيها، يقول رب الجنود، ويمد المطمار على أورشليم، ناد أيضًا وقل: هكذا قال رب الجنود: إن مـدنى تفيض بعـد خيـرًا، والرب يعزى صـهيون بـعد، ويختار بعد أورشليم» (١/ ١٦ - ١٧).

فأين نار الرب التى اتقدت غضبًا على أورشليم إلى الأبد.

(إرميا ١٧/ ٤)؟!

وأين رفض الرب لأورشليم ونزع اسمه منها

(الملوك الثانى ٢٣/ ٢٨)؟!

هل نسى الرب رفضه وتهديده ووعيده وتخريبه لأورشليم؟

أم أن هناك مَنْ «تدخل» عن عـمد ليجـعل البغـضاء حـبًا، والرفض بولاً، والهلاك والخراب بعثًا ونهضة؟!

أعتـرف بعجـزى عن التوفيق بيـن هذه المتناقضات، لكـنى أصر على طلبى ممن يؤمنون بهذه النصوص: فأنا، أريد حلاً!!

* * *

الفصل الثالث

الهيكـل

حقائـق وأساطير

بدأت فكرة بناء بيت (هيكل)[1] للرب فى ذهن داود بعد أن استقر الملك داود فى أورشليم وثبَّت دعائم ملكه، واستراح من الحروب، ونقل تابوت عهد الرب من بيت عوبيد أدوم الجتى، حيث بقى فيه ثلاثة أشهر فى أعقاب استرداده من الفلسطينيين (صموئيل الثانى ٦/ ١٠- ١١) إلى مدينة داود - صهيون - على نحوَ ما تذكر نصوص الإصحاح السادس من سفر صموئيل الثانى.

إذن، بدأ داود يفكر فى «محل إقامة» دائم للرب، كما أصبح له هو محل إقامة دائم فى صهيون وأورشليم، وكان الحوار التالى بين داود والنبى ناثان بشأن تلك الفكرة:

«وكان لما سكن الملك فى بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه أنَّ الملك قال لناثان النبى انظر. إنى ساكن فى بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق. فقال ناثان للملك: اذهب افعل كل ما بقلبك؛ لأن الرب معك. وفى تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً: اذهب وقل لعبدى داود هكذا قال الرب. أأنت تبنى لى بيتًا لسكناى. لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن. فى كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا

(١) كلمة هيكل التى يستخدمها اليهود علمًا لبيت الرب ليست كلمة عبرية، وإنما هذا الاسم مأخوذ من الكنعانيين، ويرجع الاصطلاح إلى أصل سورى بابلى، انظر: طه باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، جـ٢، ص: ٢٨٩.

شعبى إسرائيل قائلاً: لماذا لم تبنوا لى بيتًا من الأرز، والآن فهكذا تقول لعبدى داود، هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسًا على شعبى إسرائيل، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسمًا عظيمًا كاسم العظماء الذين فى الأرض، وعينت مكانًا لشعبى إسرائيل وغرسته فسكن فى مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يُذَلِّلُونَه كما فى الأول، ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبى إسرائيل، وقد أرحتك من جميع أعدائك، والرب يخبرك أنَّ الرب يصنع لك بيتًا، متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبنى بيتًا لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد، أنا أكون له أبًا وهو يكون لى ابنًا، إن تعوَّج أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بنى آدم، ولكن رحمتى لا تنزع منه كما نزعتها من شاؤل الذى أزلته من أمامك، ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك، كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد، فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كذلك كلَّم ناثان داود».

(صموئيل الثانى ٧/١ - ١٧).

ويتضح من الفقرات السابقة أن الرب قد «استنكر» - فى البداية - أن يكون له «بيت» و«مقر» دائم، فهو إله «جوَّال»، وفعل ما فعل من مكرمات ومعجزات مع شعب بنى إسرائيل منذ خروجهم من مصر، وما تلى ذلك من دعم فى عصر القضاة حتى عصر داود، ولم يطلب لنفسه بيتًا.

وفى مقابل تفكير داود فى بناء «بيت أبدى» للرب، يرد الرب عليه

بعزمه على بناء «بيت أبدى» لداود ونسله من بعده.

وفى تطور سريع لفكرة «بناء البيوت» الواردة فى هذه الفقرات، يتراجع الرب عن استنكاره لبناء بيت له، ويعطى «ترخيصًا» لبناء بيته، لا لداود صاحب الفكرة، بل لابنه الذى يخرج من أحشائه.

والنص السابق لا يحدد لنا من هو الابن البانى بين أبناء داود الكثيرين، وإن كان «الاختيار» آتٍ لا محالة فيما بعد.

ثم تمر الأحداث بعد ذلك، ويتم تأجيل فكرة الشروع فى «المبانى» حتى إشعار آخر، وتتوالى حروب داود ومنجزاته وأعماله، وتتعاظم أعداد قتلاه وضحاياه، ولم يكن سليمان - البنّاء الموعود - قد ولد بعد، حتى تم بعثه إلى الحياة من أمه بتشبع - وهى الزوجة السابقة لأوريا الحثى اليبوسى (صموئيل الثانى ١٢/ ٢٤).

ويضيق الرب ذرعًا بأفعال داود ومخالفاته، وينتقم من شعبه المقدس، ويقتل سبعين ألفًا منهم بالوباء فيما بين دان إلى بئر سبع، ويتمادى الرب فى الانتقام، وهذه تفاصيل المشهد:

«فجعل الرب وبأ فى إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى، الآن رد يدك، وكان ملاك الرب عند بيدر أرونة اليوبسى، فكلّم داود الرب عندما رأى الملاك الضارب الشعب وقال: ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا، فلتكن يدك علىّ وعلى بيت أبى.

فجاء جاد فى ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد وأقم للرب مذبحًا

في بيدر أرونة اليبوسي، فصعد داود حسب كلام جاد كما أمر الرب، فتطلع أرونة ورأى الملك وعبيده يقبلون إليه فخرج أرونة وسجد للملك على وجهه إلى الأرض، وقال أرونة: لماذا جاء سيدى الملك إلى عبده، فقال داود: لأشترى منك البيدر لكى أبنى مذبحًا للرب فتكفَّ الضربة عن الشعب، فقال أرونة لداود: فليأخذه سيدى الملك ويصعد ما يحسن فى عينيه، انظر البقر للمحرقة والنوارج وأدوات البقر حطبًا، الكل دفعه أرونة المالك إلى الملك، وقال أرونة للملك الرب: إلهك يرضى عنك، فقال الملك لأرونة: لا، بل أشترى منك بثمن ولا أصعد للرب إلهى محرقات مجانية، فاشترى داود البيدر والبقر بخمسين شاقلاً من الفضة، وبنى داود هناك مذبحًا للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة واستجاب الرب من أجل الأرض فكفت الضربة عن إسرائيل. (صموئيل ثان ٢٤/١٨ - ٢٥)

وهكذا تقترب حياة داود من نهايتها دون أن يحدد له الرب مكان بناء بيبه، لم يردْ - على الإطلاق - تحديدٌ لا لمكان البيت، ولا للمدينة التى ينبغى أن يبنى فيها، فالمسألة كلها «تطوع» من داود.

ثم يموت داود، ويتولى - دون أحقية له فى ذلك - الملك سليمان من بعده، ويخوض - هو أيضًا - مرحلة تثبيت دعائم مملكته، تارة سلمًا مع الأعداء، وتارة أخرى سفكًا للدماء مع الأهل والأقارب.

وبعد أن تتحقق «الراحة» لسليمان، يفكر - كما فكر داود من قبل - فى راحة الرب:

«والآن فقد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا

حادثة شـر، وهأنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب إلهى كـما كلم الرب داود أبى قائلاً: إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى» (الملوك الأول ٥/ ٤ -٥).

ومن الواضح أن بنى إسرائيل آنذاك لم تكن لديهم «صحيفة خبرة» فى بناء مـثل تلك الهـياكل والمعـابد، فهم جـوالون رحـالون، ولم تكن فى أورشليم، بل وفى مملكة سـليمـان بأسرها تلـك المعدات اللازمـة للبناء، ناهيك عن قلة - أو انعدام - الخـبراء المتخصصيـن فى مثل تلك المشاريع الضخمة.

وكان «حيرام» ملك صور، على علاقة طيبة بالملك داود، وما أن سمع بمسح سليمان ملكًا مكان أبيه حـتى سارع بأداء الواجب، والتهنئة للملك الجديد، ولم يَدَعْ سليـمان تلك الفرصة تمر دون اسـتغلالها، فـبعث إلى «حيرام» يقول:

«والآن، فأمر أن يقطعـوا لى أرزًا من لبنان ويكون عبيدى مع عـبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول؛ لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين» (الملوك الأول ٥/ ٦).

وكانت إجابة «حيرام» سخية وعاجلة:

«فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدًا وقال مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنًا حكيـمًـا على هذا الشـعب الكثير، وأرسـل حيـرام إلى سليمان قـائلاً: قد سمعت ما أرسلت به إلىَّ، أنا أفـعل كل مسرتك فى خشب الأرز وخشب السرو، عبيدى ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثًا فى البحـر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت

تحمله وأنت تعمل مرضاتى بإعطائك طعاماً لبيتى، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كُرٍّ حِنْطَةٍ طعامًا لبيته وعشرين كُرَّ زيت رَضٍّ، هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة، والرب أعطى سليمان حكمة كما كلَّمه، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدًا» (الملوك الأول ٥/ ٧ - ١٢).

ولم يدخر سليمان وسعًا من أجل إتمام بناء بيت الرب، إذ إنه:

«وسخَّر الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السُّخَرُ ثلاثين ألف رجل، فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالنوبة، يكونون شهراً فى لبنان وشهرين فى بيوتهم، وكان أدونيرام على التسخير، وكان لسليمان سبعون ألفًا يحملون أحمالاً وثمانون ألفًا يقطعون فى الجبل، ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة المتسلطين على الشعب العاملين العمل، وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة، فنحتها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت»

(الملوك الأول ٥/ ١٣ - ١٨).

ونظرة متأنية فاحصة للفقرات السابقة تظهر لنا ما يلى: .

* عدد العاملين فى مجال حمل مستلزمات البناء ٧٠,٠٠٠ عامل
* عدد العاملين فى مجال قطع الجبال وإعداد حجارة البناء ٨٠,٠٠٠ عامل

* عدد الوكلاء القائمين للإشراف على العمال ٣,٣٠٠ وكيل

مع مراعاة أن عدد الوكلاء - فى رواية أخرى - يزيد قليلاً، حيث يبلغ وفق رواية سفر أخبار الأيام الثانى (٢/٢) ٣٦٠٠ وكيل، ولا نعلم أى الروايتين أصدق.

* انتماء العاملين فى هذا المشروع إلى ثلاث جنسيات مختلفة: الإسرائيليون، والصوريون (بناؤو حيرام) والجبليون.

ومعنى هذا، أن أبناء الأمم الأخرى - وهم يمثلون الأغلبية حيث كان لسليمان ثلاثين ألفًا فقط من العمال الإسرائيليين (الملوك الأول ٥/ ١٢) - قد أسهموا - تحت نظام السخرة كما تشير فقرات سفر الملوك الأول - فى بناء بيت الرب وهيكله، ناهيك عن أن مستلزمات البناء نفسها، قد تم جلبها من خارج أورشليم، بل وكل فلسطين.

هذا الجيش العمالى الكبير، الذى يربو على مائة وخمسين ألف عامل، كان من المنتظر أن يكونوا قد أسهموا فى بناء «معجزة معمارية» كبرى، سواء فى مساحتها، أو فى شكلها.

لكننا نلاحظ - حسب الرواية التى سنسوقها الآن - أن البناء كان متواضعًا فى مساحته، جاء فى الإصحاح السادس من سفر الملوك الأول:

«وكان فى سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة للملك سليمان على إسرائيل فى شهر زيو وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب، **والبيت الذى بناه الملك سليمان للرب طوله ستون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وسمكه ثلاثون ذراعًا، والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعًا حسب عرض البيت وعرضه عشر أذرع**

قدَّام البيت، وعمل للبيت كوى مسقوفة مشبكة، وبنى مع حائط البيت طباقًا حواليه مع حيطان البيت حول الهيكل والمحراب وعمل غرفات فى مستديرها، فالطبقة السفلى عرضها خمس أذرع والوسطى عرضها ست أذرع والثالثة عرضها سبع أذرع؛ لأنه جعل للبيت حواليه من خارج أخصامًا لئلا تتمكن الجوائز فى حيطان البيت، والبيت فى بنائه بنى بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع فى البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد» (الملوك الأول ٦/ ١ - ٧).

ولعل تهيئة الهيكل من الداخل وزخرفته هى التى أخذت من سليمان اهتمامًا أكبر من الاهتمام بمساحة بيت الرب، فأبعاد الهيكل على نحو ما وردت فى الفقرات السابقة لا تشير إلا إلى معبد صغير خاص بسليمان، هو أشبه «بزاوية» للعبادة، وإن كان قد بالغ فى «تذهيبها» ونقوشها.

فمساحة الهيكل هى ٦٠ ذراعًا طولاً × ٢٠ ذراعًا عرضًا × ٣٠ ذراعًا سمكًا، وقد استغرق البناء سبع سنين حتى تم واكتمل.

(الملوك الأول ٦/ ٣٨).

وهذه تفاصيل بيت الرب ومحتوياته وتخطيطه على نحو ما ورد فى سفر الملوك الأول ٦/ ١٤ - ٣٨:

«فبنى سليمان البيت وأكمله، وبنى حيطان البيت من داخل بأضلاع أرز من أرض البيت إلى حيطان السقف وغشاه من داخل بخشب وفرش أرض البيت بأخشاب سرو، وبنى عشرين ذراعًا من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان، وبنى داخله لأجل المحراب أى قدس الأقداس، وأربعون ذراعًا كانت البيت أى الهيكل الذى أمامه، وأرز البيت

من داخل كان منقوراً على شكل قثاء وبراعم زهور، الجميع أرز، لم يكن يرى حَجَرٌ، وهيأ محرابًا فى وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب، ولأجل المحراب عشرون ذراعًا طولاً وعشرون ذراعًا عرضًا وعشرون ذراعًا سمكًا، وغشاه بذهب خالص وغشى المذبح بأرز، وغشَّى سليمان البيت من داخل بذهب خالص، وسد بسلاسل ذهب قدَّام المحراب، وغشَّاه بذهب، وجميع البيت غشَّاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذى للمحراب غشَّاه بذهب، وعمل فى المحراب كروبين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أرذع، وخمس أذرع جناح الكروب الواحد وخمس أذرع جناح الكروب الآخر، عشر أذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه، وعشر أذرع الكروب الآخر، قياس واحد وشكلٌ واحدٌ للكروبين، علو الكروب الواحد عشر أذرع وكذا الكروب الآخر، وجعل الكروبين فى وسط البيت الداخلى وبسطوا أجنحة الكروبين فمسَّ جناح الواحد الحائط وجناح الكروب الآخر مس الحائط الآخر وكانت أجنحتهما فى وسط البيت يمس أحدهما الآخر، وغشَّى الكروبين بذهب، وجميع حيطان البيت فى مستديرها رسمها نقشًا بنقر كروبيم ونخيل وبراعم زهور من داخل ومن خارج، وغشَّى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج، وعمل لباب المحراب مصراعين من خشب الزيتون، الساكف والقائمتان مخمسة، والمصراعان من خشب الزيتون، ورسم عليهما نقش كروبيم ونخيل وبراعم زهور وغشاهما بذهب ورصَّع الكروبيم والنخيل بذهب، وكذلك عمل لمدخل الهيكل قوائم من خشب الزيتون مربعة، ومصراعين من خشب السرو، المصراع الواحد دفَّتان تنطويان والمصراع الآخر دفَّتان تنطويان، ونحت كروبيم ونخيلاً وبراعم زهور وغشَّاها بذهب مطرَّق على

المنقوش، وبنى الدار الداخلية ثلاثة صفوف منحوتة وصفا من جوائز الأرز، في السنة الرابعة أسس بيت الرب في شهر زيو، وفي السنة الحادية عشرة في شهر بول وهو الشهر الثامن أكمل البيت في جميع أموره وأحكامه، فبناه في سبع سنين» (الملوك الأول ٦/ ١٤ - ٣٨).

يقول H. G. Wells في كتابه: موجز تاريخ العالم (ص ٩٣) عن الهيكل السليماني السابق وصفه: «إننا لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أنه في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي»(١).

تبدو المبالغة - إذن - في هيبة البناء وعظمته، واضحة جلية، وهذا ما يقوله أيضًا اليهودي الأمريكي لويس براون في كتابه المسمى: «حياة اليهود»، إذ يرى أن إنجازات سليمان في أورشليم - وفي مقدمتها قصره الملكي - كانت تبدو في عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور، مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة، سمجة الذوق(٢).

ومما لا شك فيه أن هيكل سليمان لم يكن نموذجًا معماريًا فريدًا، فلم يكن الملك سليمان وقومه من ذوي الخبرة في تشييد مثل هذه المعابد والهياكل، ولو كان الإسرائيليون القدامى، الذين عاشوا في مصر مئات السنين، قد أسهموا - حسبما يزعم البعض - في بناء الأهرام، لتوارث

---

(١) نقلاً عن: حسين جميل، بطلان الأسس التي أقيم عليها وجود إسرائيل على الأرض العربية، وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة الإعلامية (٢) بغداد، ١٩٦٨، ص: ٢١.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث في الفكر اليهودي، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٩.

الإسرائيليـون تلك الخبرة، وذلك التـراث، وما جلبوا العـمال والبناة من لبنان.

إن التصميم العام لمعبد سليمان يشابه إلى حد كبير المعبد الكنعانى، مع اختلافـات يسيرة تحتمـها اختلافات العـقائد والشعائر، فالمعـبد الكنعانى المكتشف فى منطقـة بيسان، ويرجع تاريخـه إلى عام ١٣٠٠ ق.م - أى قبل أن تـطأ أقدام بنى إسـرائيل أرض كنعان - يتكون من غـرفة خـاصة مربعة تقع فى نهاية الغرفة الرئيسة للمعبد، حيث يتم الوصول إلى الغرفة العليا عن طريق بعـض الدرجات، التى تنتهى بوجـود تمثال للإله، وتمثل هذه الغرفـة العليا قدس الأقـداس الذى ميز معـبد سليمـان، وهى كانت موجودة - كذلك - فى معابد مصر والعراق[1].

ولا نهدف هنا من عـرض هذه الوقائع عن هيكل سليمـان التقليل من إنجازاته، وإنما إظهار حقـيقة موقع الهيكل فقط من النهـضة المعمارية التى بدأها سليمـان، ولم يكن جل همه هو تضخيم هذا الهـيكل - على نحو ما نجد من تفاصيل أعـماله الإنشائية - بقدر ما كان اهتمـامه منصبًا على بناء عاصمة جـديدة كاملة، استهلها داود ببناء بيتـه وتحصين القلعة على جبل صهيون.

لقد كانت لدى سليمان رؤية جديدة، وخريطة متكاملة، لعاصمة تضم بين أسوارها المعبد والقصر وسائر المبانى الدينية والإدارية ومساكن زوجاته الكثيـرات، لقد أقـام سليمـان فى عاصمـة ملكه حيًـا دينيًا وآخر مـلكيًا

(١) المزيد حول عمارة هيكل سليمان وطرازه فى: عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (١٩٧)، ٢٠٠٠، ص: ٧٠ وما بعدها.

وثكنات للحرس، ومساكن لغير المؤمنين بشريعة موسى من نسائه، على نحو ما فعل مع بنت فرعون (الملوك الأول ٩/ ٢٤)، كما أقام سليمان الأسوار الفاصلة بين الأحياء والتحصينات والسلالم وخزانات المياه والأحواض والبرك[1]، وهذا كله يعكس طبيعة المشروع السليمانى العمرانى الضخم فى أورشليم كلها.

ولإعطاء طابع التقديس لبيت الرب فى نفوس القوم، جمع سليمان شيوخ إسرائيل ورؤساء الأسباط والآباء فى أورشليم، وأصعد تابوت العهد من صهيون - مدينة داود - إلى بيت الرب فى أورشليم لتبدأ صفحة جديدة لهذه المدينة - أورشليم - فى الفكر الدينى الإسرائيلى، وليستريح «الرب» أخيرًا، بعد طول تجوال:

«حينئذ تكلم سليمان: قال الرب: إنه يسكن فى الضباب، إنى قد بنيت لك بيت سكنى، مكانًا لسكناك إلى الأبد»

(الملوك الأول ٨/ ١٢ - ١٣).

وكان نقل تابوت عهد الرب - الذى يضم لوحى الحجر اللذين وضعهما موسى فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر - نقطة تحول كبرى فى تاريخ بنى إسرائيل: دينيًا وسياسيًا، حتى يومنا هذا.

وهناك نقطة مهمة ينبغى الإشارة إليها فى هذا المقام وهى أن الرب - إله إسرائيل - لم يحدد على الإطلاق، لا لداود ولا لسليمان، مكان إقامة بيته وسكناه، وإنما كان الأمر كله مجرد اختيار داود وسليمان، وهذا

(١) سيد فرج راشد، مرجع سبق ذكره، ص: ٦٦، ٦٧.

فى حد ذاته لا يعكس قداسة المكان الذى أقيم عليه بيت الرب أو خصوصيته - قبل البناء، وإنما اكتسب المكان ما اكتسب من تقديس وخصوصية بحلول تابوت العهد فيه، وإن كان المكان كله، والمدينة برمتها، لم تكن قد احتلت مكانة فى الفكر الدينى اليهودى إلا بعد سليمان بقرون.

وتنتهى مراسم تدشين بيت الرب فى حضرة سليمان وجميع بنى إسرائيل على النحو التالى:

«ثم إنَّ الملك وجميع إسرائيل معه ذبحوا ذبائح أمام الرب، وذبح سليمان ذبائح السلامة التى ذبحها للرب من البقر اثنين وعشرين ألفًا ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألفًا فدشَّن الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الرب، فى ذلك اليوم قدس الملك وسط الدار التى أمام بيت الرب لأنه قرَّب هناك المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلامة لأن مذبح النحاس الذى أمام الرب كان صغيراً عن أن يسع المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلامة، وعيد سليمان العيد فى ذلك الوقت وجميع إسرائيل معه جمهور كبير من مدخل حماة إلى وادى مصر أمام الرب إلهنا سبعة أيام وسبعة أيام أربعة عشر يومًا، وفى اليوم الثامن صرف الشعب فباركوا الملك وذهبوا إلى خيمهم فرحين وطيبى القلوب لأجل كل الخير الذى عمل الرب لداود عبده ولإسرائيل شعبه» (الملوك الأول ٨/ ٦٣ - ٦٦).

ومع هذا الجهد الكبير، والعمل الشاق الذى قام به سليمان من أجل بناء هيكل الرب، لم يكن إله بنى إسرائيل ليقبل السكنى الدائمة وتوقيع «عقد التملك» لهذا البيت إلا بشروط، تمامًا كشروط أى تعاقد بين

طرفين:

«وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً: هذا البيت الذى أنت بانيه: إن سلكت فى فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإنى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبيك، وأسكن فى وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل» (الملوك الأول ٦/١١ - ١٣).

ويضيف الرب فى موضع آخر، مؤكداً على شروط «التعاقد»:

«وكان لمَّا أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سُرَّ أن يعمل، أنَّ الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون، وقال الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى، قدَّستُ هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام، **وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى، فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلَّمت داود أباك قائلاً لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل، إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدَّسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب**، وهذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت، فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا

بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر». (الملوك الأول ٩/ ١ - ٩).

فإقامة الرب فى هذا المسكن تتطلب من بنى إسرائيل بعامة، ومن سليمان على وجه الخصوص تحقيق عدة شروط، وإلا فلن يستمر الرب فى سكناه. من هذه الشروط - حسبما جاء فى النص السابق - ما يلى:

أولاً - أن يسلك سليمان - كأبيه داود - طريق الرب بسلامة قلب واستقامة، وهذا لم يحدث.

ثانيًا - أن يعمل سليمان حسب كل ما أوصاه به الرب، وأن يحفظ فرائضه وأحكامه، وهذا أيضًا لم يحدث.

ثالثًا - أن لا يحيد بنو إسرائيل وأبناؤهم عن طريق الرب، وأن يحفظوا وصاياه وفرائضه، وهذا لم يتحقق.

رابعًا - أن لا يعبد بنو إسرائيل آلهة الأمم الأخرى، وقد عبد الإسرائيليون آلهة الأمم المحيطة بهم.

وبناءً على إخلال سليمان وبنى إسرائيل - حسبما تشير نصوص العهد القديم كله - بشروط «عقد التملك أو السكن» فى هيكل الرب بأورشليم، فإن الرب - وهذا طبيعى ومنطقى - قد ترك سكناه، بل جعل هذا الهيكل الذى أقيم له شيئًا «طريدًا» و«منبوذًا» من قبل الرب، وعلاوة على ذلك: «هذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت؟ فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم. . .».

ويبدو واضحًا من الفكر الإسرائيلى أن تقديس «الهيكل» يرجع بالدرجة الأولى لأن سليمان - رمز المملكة والدولة الإسرائيلية - هو الذى بناه، لكننا نقف فى حيرة من هذه المسألة عندما نجد أن سليمان - وفق روايات العهد القديم - قد بنى معابد ومذابح ومرتفعات أخرى للآلهة الأخرى:

«ذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه - حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»

(الملوك الأول ١١/ ٥ - ٨).

بل إن وصف معبد سليمان الوارد فى سفر الملوك ليزخر بالصور الوثنية فى ظاهرها[1].

فلماذا يخصص الإسرائيليون قداستهم لهيكل واحد دون سائر هذه الهياكل والمرتفعات التى بناها سليمان لآلهة الأمم الأخرى؟ هل لأنها وثنية؟

إن تاريخ بنى إسرائيل وفق روايات العهد القديم منذ الخروج من مصر وحتى نهاية هذا الكتاب، كله - باستثناء فترات وجيزة قصيرة - وثنية وشرك وكفر.

ربما لأن هيكل سليمان الأورشليمى «خاص» ببنى إسرائيل دون سائر

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٩٧.

الأمم المجاورة، ومن ثم كانت له هذه المكانة!!

وربما لأنه كان أكبرها وأعظمها!!

وربما لأنه كان فى العاصمة، الرمز السياسى الوحيد فى تاريخ بنى إسرائيل، وبالتالى تمخضت حوله وبسببه تطلعات قومية ما كان لنا أن نجدها حول سائر المعابد والمرتفعات الأخرى التى بناها سليمان، وهذا فى رأيى هو الأرجح.

إن معبد سليمان كان مكانًا خاصًا بعبادته وتضرعه، ولم يكن - منذ أن شرع سليمان فى بنائه حتى أتمه - مقصداً «للشعب»، ويتضح هذا من صلاة سليمان التى قدمها للرب بعد الانتهاء من البناء، إذ يقول: «فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهى واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبدك أمامك اليوم، لتكون عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضع الذى قلت: إن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع» (الملوك الأول ٨/ ٢٨ - ٢٩).

النص يشير - ويكرر إشارته - إلى أن هذا البيت لصلاة عبد الرب سليمان وتضرعه فقط.

لكن كاتب النص قد أدرك بعد تخصيص الهيكل لعبادة سليمان ثلاث مرات، أنه لا مكان لشعب إسرائيل فى الهيكل، ومن ثم أضاف فى الفقرة التالية لما سبق كلمة واحدة، لتشرك الشعب مع الملك فى «حق الانتفاع» بهذا الموضع، وألحق بالعبارة ما تتطلبه من تعديلات.

«واسمع تضرع عبدك وشعبك إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع» (الملوك الأول ٨/ ٣٠).

إن كلمة «وشعبك» وما تبعها من تعديلات فى العبارة: «إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع» لا محل لها هنا وغير مقصودة على الإطلاق بعد أن كرر سليمان - ثلاث مرات - «خصخصة» الموضع، وانفراده «بحق الانتفاع» دون شريك.

ويؤكد زعمنا السابق أن الهيكل، وأورشليم كلها، قد ظلا غير محل قداسة على الإطلاق فيما بعد سليمان - وهذا ما سنفرد له حديثًا إحصائيًا وفق شهادات العهد القديم - الأمر الذى يؤكد على خصوصية «الهيكل» لسليمان، وانتفاء أى شبهة لعموميته بالنسبة لبنى إسرائيل من ناحية، وعلى عدم تفرد هذا الهيكل - أيضًا - بالنسبة لسليمان، إذ بنى مرتفعات ومذابح - وهى بمثابة أماكن للعبادة - لآلهة زوجاته المتعددة، وكان لكل إله مطلبه الذى يتفق مع طقوس عبادته.

ولم يكن موقف الأغيار من الأمم الأخرى تجاه هيكل سليمان أحسن حالاً من موقف الإسرائيليين أنفسهم من هذا الهيكل بعد سليمان وانقسام مملكته، وهذا أمر منطقى معقول، فإذا كان الإسرائيليون لا يقيمون وزنًا لهذا الهيكل، ولا يتمتع فى نفوسهم بأدنى قداسة، وهو بيت «يهوه» إلههم ومحل إقامته، فهل يمكن لنا أن ننتظر ممن لا يؤمنون بالإله «يهوه» أن يقوموا بالحفاظ على هذا البيت ورعايته وتقديسه؟!

ما دام الأمر كذلك، وما دام الإسرائيليون أنفسهم قد بدأوا بالعدوان على بيت الرب على نحو ما وجدنا فى تاريخ الحقبة التالية لانقسام المملكة، فلا بأس أن يفعل البابليون - وغيرهم - ما فعلوه بالهيكل.

ولقد لعب البابليون[١] دوراً مهمًا فى تاريخ الشرق الأدنى وبخاصة فى القرن السادس قبل الميلاد، حيث استولوا على جميع الدويلات القائمة فى سوريا وفى فلسطين، وبلغوا أوج ازدهارهم وعظمتهم فى عهد ملكهم نبوخذ نصر[٢] (بختنصر) خليفة نبوبولاسر، وكان نبوخذ نصر من أعظم الملوك الكلدانيين، ودام حكمه قرابة ثلاثة وأربعين سنة (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، وقد قام بحملتين حربيتين على مملكة يهوذا وقضى عليها وسبى اليهود إلى بلاد بابل.

---

(١) البابليون: من أقدم الشعوب السامية التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستقرت فى أرض الرافدين، ويرجح حدوث هذه الهجرة منذ الألف الثالث ق.م، وقد كون البابليون حضارة راقية فى هذه المنطقة، إذ لهم الفضل فى اختراع «الكتابة الصوتية»، كما اشتهر من ملوكهم حمورابى الذى ازدهرت المنطقة فى عهده ازدهاراً دينيًا واقتصاديًا وسياسيًا بفضل تشريعاته الحكيمة المشهورة والمعروفة بقوانين حمورابى (حوالى ١٧٠٠ ق.م)، وقد ظل البابليون فى صراع مع الدول المجاورة، وتمكنوا فى كثير من الفترات من بسط نفوذهم، ويحدثنا العهد القديم عن غزو البابليين لأورشليم وتدميرهم للهيكل وتخريبهم للمدينة على يدى بنوخذ نصر البابلى عام ٥٨٦ ق.م تقريبًا، ونفى يهود أورشليم إلى بابل، ولا شك أن البابليين بحضارتهم ومعتقداتهم قد أثروا تأثيراً بالغًا على الإسرائيليين المنفيين، وقد بدأ المنفيون فى إعادة النظر فى تسجيل شرائعهم وشرحها أثناء وجودهم فى بابل، وكان التلمود البابلى المشهور نتيجة هذه الحركة الفكرية اليهودية.

للمزيد حول البابليين: لغتهم وحضارتهم وديانتهم انظر: ص ٢٣ - ٤٢.

سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، مرجع سبق ذكره، ص: ٦١ وما بعدها.

انظر أيضًا: إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية ص: .

(٢) يعرف نبوخذ نصر الثانى لأن الأول نبوخذ نصر الذى ينتمى إلى السلالة البابلية الرابعة والذى استعاد استقلال بابل أيام حكم الأشوريين لها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد (١١٢٤ - ١١٠٣ ق.م).

ولقد وجه نبوخذ نصر حملته الأولى عام ٥٩٧ ق.م، وذلك فى عهد الملك «يهوياقيم» الذى حكم أورشليم، كما وجه حملته الثانية عام ٥٨٦ ق.م، بل وجاء فى هذه الحملة بنفسه إلى أورشليم، وها هى تفاصيل الحملتين كما يسجلها لنا سفر الملوك الثانى، فى الإصحاح الرابع والعشرين وفى الإصحاح الخامس والعشرين كذلك.

«فى أيامه (يهوياقيم) صعد نبوخذ ناصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبداً ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه، فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الآراميين وغزاة الموابيين وغزاة بنى عمون وأرسلهم على يهوذا ليبيدها حسب كلام الرب الذى تكلم به عن يد عبيده الأنبياء، إن ذلك كان حسب كلام الرب على يهوذا لينزعهم من أمامه لأجل خطايا منسى حسب كل ما عمل، وكذلك لأجل الدم البرىء الذى سفكه لأنه ملأ أورشليم دمًا بريئًا ولم يشأ الرب أن يغفر وبقية أمور يهوياقيم وكل ما عمل أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا، ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه وملك يهوياكين ابنه عوضًا عنه، ولم يعد أيضًا ملك مصر يخرج من أرضه؛ لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر.

كان يهوياكين ابن ثمانى عشرة سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم، واسم أمه نحوشتا بنت ألناثان من أورشليم، وعمل الشر فى عينى الرب حسب كل ما عمل أبوه، فى ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذناصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار، وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه

وأخـذه ملك بابل فى السنة الثـامنة من ملكه، وأخـرج من هناك جمـيع خزائن بيت الرب وخـزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عـملها سليـمـان ملك إسـرائيل فى هيكل الرب كـمـا تكلم الرب، وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجمـيع جبابرة البأس عشرة آلاف مـسبى وجميع الصنَّاع والأقيان، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض، وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونسـاء الملك وخـصيـانه وأقـوياء الأرض سبـاهم من أورشليم إلى بابل، وجميع أصحاب البـأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل، وملَّك ملك بابل متنيًا عمه عوضًا عنه وغيَّر اسمه إلى صدقيا.

كان صدقيا ابن إحدى وعـشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة فى أورشليم واسم أمه حميطل بنت إرمـيا من لبنة، وعمل الشر فى عينى الرب حـسب كل ما عمل يهوياقـيم؛ لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا حـتى طرحهم من أمام وجـهه كان أنَّ صدقـيًا تمرد على ملك بابل» (الملوك الأول ٢٤/١ - ٢٠).

«وفى السنة التـاسعة لملكه فى الـشهر العـاشر فى عاشـر الشهـر جاء نبوخـذ ناصر ملك بابل هو وكل جيـشه على أورشليم ونزل عليـها وبنوا عليها أبراجًا حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقـيا، وفى تاسع الشهـر اشتد الجوع فى المدينة ولم يكن خـبزٌ لشعب الأرض، فثغرت المدينة وهرب جمـيع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنـة الملك، وكان الكلدانيون حول المدينة مسـتديرين، فذهبـوا فى طريق البرية، فتـبعت جيوش الـكلدانيين الملك فأدركـوه فى برية أريحـا وتفرقت جـميع جـيوشـه عنه، فأخـذوا الملك

وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ربلة وكلموه بالقضاء عليه، وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عينى صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل.

وفى الشهر الخامس فى سابع الشهر وهى السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ ناصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم، وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط، وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط، ولكنّ رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرّامين وفلاحين، وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد وبحر النحاس الذى فى بيت الرب كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل، والقدور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التى كانوا يخدمون بها أخذوها والمجامر والمناضح، ما كان من ذهب فالذهب وما كان من فضة فالفضة أخذها رئيس الشرط، والعمودان والبحر الواحد والقواعد التى عملها سليمان لبيت الرب لم يكن وزن لنحاس كل هذه الأدوات، ثمانى عشرة ذراعًا ارتفاع العمود الواحد وعليه تاج من نحاس وارتفاع التاج ثلاث أذرع والشبكة والرمانات التى على التاج مستديرة جميعها من نحاس، وكان للعمود الثانى مثل هذه على الشبكة.

وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الرئيس وصفنيا الكاهن الثانى وحارسى الباب الثلاثة، ومن المدينة أخذ خصيًا واحدًا كان وكيلاً على رجال الحرب وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك الذين وجدوا

فى المدينة وكاتب رئيس الجند الذى كان يجمع شعب الأرض وستين رجلاً من شعب الأرض الموجودين فى المدينة، وأخذهم نبوزرادان رئيس الشرط وسار بهم إلى ملك بابل إلى ربلة، فضربهم ملك بابل وقتلهم فى ربلة فى أرض حماة، فسبى يهوذا من أرضه.

وأما الشعب الذى بقى فى أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ ناصر ملك بابل فوكَّل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان، ولما سمع جميع رؤساء الجيوش هم ورجالهم أنَّ ملك بابل قد وكَّل جدليا أتوا إلى جدليا إلى المصفاة وهم إسماعيل بن نثنيا ويوحنان بن قاريح وسرايا بن تنحومث النطوفاتى ويازنيا ابن المعكى هم ورجالهم، وحلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لهم: لا تخافوا من عبيد الكلدانيين، اسكنوا الأرض وتعبدوا لملك بابل فيكون لكم خير، وفى الشهر السابع جاء إسماعيل بن نشنيا بن أليشمع من النسل الملكى وعشرة رجال معه وضربوا جدليا فمات وأيضًا اليهود والكلدانيين الذين معه فى المصفاة، فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين، وفى السنة السابعة والثلاثين لسبى يهوياكين ملك يهوذا فى الشهر الثانى عشر فى السابع والعشرين من الشهر رفع أويل مرودخ ملك بابل فى سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن، وكلمه بخير وجعل كرسيه فوق كراسى الملوك الذين معه فى بابل، وغير ثياب سجنه وكان يأكل دائمًا الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من عند الملك أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته» (الملوك الأول ٢٥/ ١ - ٣٠).

لم تسلم أورشليم إذن من بطش البابليين، ولم يسلم بيت الرب أيضًا من انتقامهم، كما لم يسلم اليهود أنفسهم من نتيجة الهزيمة، والتى

تمثلت فى سبى الجبابرة منهم وجميع الصناع والأقيان، بل والملك وذويه، ولم يعد فى المدينة سوى «مساكين شعب الأرض».

أما بيت الرب، فقد تم الاستيلاء على ما فيه فى المرة الأولى، ثم قام «نبوزردان» رئيس شرط «نبوخذنصر» فى المرة الثانية بما هو أنكى وأشد من الاستيلاء، إذ «أحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار، وجميع أسوار أورشليم مستديرًا هدمها..».

وهكذا يتعرض «الهيكل» لعملية غزو وحشية، لا يمكن لنا من خلال وصف بعض ملامحها فى النصوص السابقة، أن نتوقع بقاء الهيكل على حاله، فالذى قام بهدم جميع أسوار أورشليم، وحرق الهيكل والبيوت، لا يمكن أن يكون قد ترك الهيكل واكتفى بحرقه، المنطق يقول: إن هؤلاء الغزاة قد هدموا كل ما أمكن هدمه بهدف إزالة دعائم مملكة يهوذا من على خارطة ممالك المنطقة.

فإذا كان الغزاة قد عاثوا فى الأرض فسادًا حتى «أهلكوا الآنية الثمينة» كما يخبرنا سفر أخبار الأيام الثانى (٣٦/ ٢٠)، فهل يعقل أن يبقى الهيكل دون إهلاك وتدمير؟!.

وبعد مرور سبعة وثلاثين عامًا على تلك الأحداث، نجد تطورًا - دون مبرر - يحل فى بابل وذلك فى فترة حكم «أويل ماردوخ» ملك بابل:

«فى السنة السابعة والثلاثين لسبى «يهوياكين» ملك يهوذا، فى الشهر الثانى عشر، فى السابع والعشرين من الشهر، رفع أويل مردوخ ملك بابل فى سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن، وكلمه بخير، وجعل كرسيه فوق كراسى الملوك الذين معه فى بابل، وغير ثياب سجنه، وكان يأكل الخبز أمامه كل أيام حياته، ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من

عند الملك، أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته»

(سفر الملوك الثانى ٢٥/ ٢٧ - ٣٠).

لا يقدم لنا العهد القديم أية تفاصيل أخرى عن السبعين سنة التى قضاها المنفيون فى بابل، ولا نعرف - أيضًا - أسباب هذا التحول البابلى الفجائى تجاه ملك يهوذا المنفى فى بابل.

وبعد تمام السبعين عامًا، بدأت مملكة فارس تظهر فى الأفق كقوة عظمى آنذاك:

«وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس، لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا، نبّه الرب روح كورش ملك فارس، فأطلق نداء فى مملكته وكذا بالكتابة قائلاً: هكذا قال كورش ملك فارس: إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض، وهو أوصانى أن أبنى له بيتًا فى أورشليم التى فى يهوذا، مَنْ منكم من جميع شعبه الرب إلهه معه وليصعد».

(أخبار الأيام الثانى ٣٦/ ٢٢ - ٢٣).

وتتكرر العبارتان السابقتان مرة أخرى مباشرة وذلك فى افتتاحية سفر عزرا ويتم استكمالهما على النحو التالى:

«من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إله إسرائيل، هو الإله الذى فى أورشليم، وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم»

(عزرا ١/ ٣ - ٤).

الملك الفارسى كورش يوصيه الرب إله السماء بأن يبنى له بيتًا فى أورشليم.

والملك كورش يفتح باب العودة إلى يهوذا.

والملك كورش يقود حملة تبرعات «نقدية وعينية» لبناء بيت الرب.

إذن، لقد تهود كورش، وإن لم تقل نصوص العهد القديم ذلك، فمعنى استجابته لوصايا «إله إسرائيل»، أنه قد آمن به وخضع له، لكن الحفريات تشير إلى أنه كان ينسب انتصاراته إلى الإله البابلى مردوخ[1]، ومن ثم فإننا لا نفهم سر أسلوب كورش وخضوعه لإله إسرائيل على النحو الذى يبدو جليًا فى سفر عزرا.

وثمة نقطة مهمة يمكن استخلاصها من ذلك الإعلان الملكى، وهى أن النية تتجه إلى بناء بيت الرب، وليس ترميمه أو إصلاحه نتيجة ما يكون قد حل به إبان الغزو البابلى، وهى هنا إشارة واضحة إلى «البناء من جديد»، دون تحديد لمكان هذا البناء كذلك.

ولاقت دعوة الملك قبولاً لدى الكثيرين من اليهود المنفيين.

ويدفع الإيمان بإله إسرائيل، والذى استقر فى قلب الملك الفارسى، يدفعه لإعادة ما استولى عليه الملك البابلى نبوخذنصر من بيت الرب:

«والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التى أخرجها نبوخذنصر من أورشليم وجعلها فى بيت آلهته، وهذا عددها...» (عزرا ١/٧ - ١١).

ويبدو أن كاتب سفر عزرا قد أدرك أن الوصية الملكية ببناء بيت للرب فى أورشليم لم تحدد مكان ذلك البيت، فختم الإصحاح الثانى قائلاً:

«والبعض من رؤوس الآباء عند مجيئهم إلى بيت الرب الذى فى أورشليم تبرعوا لبيت الرب لإقامته فى مكانه...» (عزرا ٢/ ٦٨).

(١) ج. ستافورد رايت، تفسير سفرى عزرا ونحميا فى «تفسير الكتاب المقدس» إعداد: فرنسس دافدسن، دار منشورات النفير، بيروت، ١٩٦٦، ص: ٣٣٨.

والعبارة تشير - كذلك - إلى إقامة بيت الرب، لا إلى إصلاحه أو ترميمه أو تجديده، أى أن البابليين كانوا قد أتوا على البيت ودمروه تمامًا، ويؤكد زعمنا هذا عبارة أخرى وردت فى الإصحاح الثالث من سفر عزرا، تقول:

«ابتدأوا من اليوم الأول من الشهر السابع يصعدون محرقات للرب، وهيكل الرب لم يكن قد تأسس». (عزرا ٣/ ٦).

وتأكيدًا لزأينا، نورد عبارة على لسان القائمين بالبناء فى المرة الثانية إذ قالوا: «ولكن بعد أن أسخط آباؤنا إله السماء دفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل الكلدانى الذى هدم البيت وسبى الشعب إلى بابل». (عزرا ٥/ ١٢).

وهكذا يكون «الهيكل» قد دمر تمامًا ولم يعد له أساس، على أيدى البابليين.

مرة أخرى يبنى الهيكل.

ومرة أخرى يكون «للأجانب والأغيار» دور بارز فى إعادة البناء:

«وأعطوا فضة للنحاتين والنجارين ومأكلاً ومشربًا وزيتًا للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب أرز من لبنان إلى بحر يافا حسب إذن كورش ملك فارس لهم». (عزرا ٣/ ٧).

وتمر عملية البناء الجديد بسلسلة من المناورات من قبل المناوئين للبناء، من أبناء الأمم والشعوب التى أسكنت مكان المنفيين فى أورشليم وما حولها، إذ كانوا يدركون جيدًا أن إعادة بناء بيت إله إسرائيل يعنى عودة مركز التآمر اليهودى تجاه ملوك الأرض (عزرا ٤/ ٦ - ١٣).

لكن الملك الفارسى الجديد داريوس، يبحث فى «أرشيف» القصر، ليجد أمر الملك كورش ببناء البيت مع تحديد لمساحته، مع أن هذا التحديد لم يرد

على الإطلاق فى النصين اللذين أوردتهما فى نهاية سفر الأخبار الثانى، وبداية سفر عزرا، أما المساحة الجديدة للهيكل الجديد فهى كما يلى:

«ولتوضع أسسه: ارتفاعه ستون ذراعًا، وعرضه ستون ذراعًا، بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد..» (عزرا ٦/٣ - ٤).

ونلاحظ هنا أن عرض «الهيكل» الذى بناه سليمان، وعلى نحو ما أخبرنا سفر الملوك الأول (٦/ ٢) كان عشرين ذراعًا، بينما بلغ هنا ثلاثة أضعاف ما كان عليه (ستون ذراعًا).

وتصدر الأوامر الملكية الفارسية باستمرارية البناء، بل «كل إنسان يغير هذا الكلام (الأمر باستمرار البناء) تسحب خشبة من بيته ويعلق مصلوبًا عليها، ويجعل بيته مزبلة من أجل هذا، والله الذى أسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله الذى فى أورشليم» (عزرا ٦/ ١١ - ١٢).

بقى أن نعرف أن صاحب هذا القرار الجرىء، ليس كورش الفارسى الذى أشرت إلى «تهويده»، وإنما هو الملك «داريوس»، وما أظن أن يصدر مثل هذا «القرار الخطير»، إلا إذا كان هو أيضًا قد «تهود».

ويأتى ملك فارسى آخر، هو «ملك الملوك» أرتحشستا، ليؤكد لنا - من خلال رسالته إلى عزرا الكاهن - «تهود» المملكة الفارسية حيث قال: «من ارتحشستا - ملك الملوك - إلى عزرا الكاهن، كاتب شريعة إله السماء الكامل، إلى آخره قد صدر منى أمرٌ إنَّ كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التى بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع

به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذى فى أورشليم مسكنه، وكل الفضة والذهب التى تجد فى كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذى فى أورشليم، لكى تشترى عاجلاً بهذه الفضة ثيرانًا وكباشًا وخرافًا وتقدماتها وسكائبها وتقربها على المذبح الذى فى بيت إلهكم الذى فى أورشليم، ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحسب إرادة إلهكم تعملونه، والآنية التى تعطى لك لأجل خدمة بيت إلهك فسلمها أمام إله أورشليم، وباقى احتياج بيت إلهك الذى يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملك، ومنى أنا أرتحشستا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر إن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليعمل بسرعة، إلى مئة وزنة من الفضة ومئة كر من الحنطة ومئة بث من الخمر ومئة بث من الزيت والملح من دون تقييد، كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء؛ لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملك وبنيه، ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين والنتينيم وخدَّام بيت الله هذا لا يؤذن أن يلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة، أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التى بيدك ضع حكامًا وقضاةً يقضون لجميع الشعب الذى فى عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك والذين لا يعرفون فعلموهم، وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفى أو بغرامة المال أو بالحبس.

مبارك الرب إله آبائنا الذى جعل مثل هذا فى قلب الملك لأجل تزيين بيت الرب الذى فى أورشليم، وقد بسط علىَّ رحمة أمام الملك ومشيريه وأمام جميع رؤساء الملك المقتدرين، وأما أنا فقد تشددت حسب يد الرب إلهى على وجمعت من إسرائيل رؤساء ليصعدوا معى» (عزرا ٧/ ١٢ - ٢٨).

فالملك الفارسى الثالث - أرتحشستا يعترف بأن إلـه إسرائيل هو إله السماء الكامل.

ويفتح باب العودة للمنفيين جميعًا.

ويتبرع بالذهب والفضة لإله إسرائيل الذى فى أورشليم مسكنه.

ويعيد ما تم سلبه على أيدى البابليين من الإسرائيليين.

بل ويوفر جميع احتياجات بيت إله إسرائيل من خزانة الملك، ويصدر أوامره إلى كل الخَزَنَة بتوفير ما يطلبه عزرا «عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء».

والملك الفارسى يفعل ذلك عن إيمان ويقين بأن عدم الاستجابة إلى «المطالب الإسرائيلية» قد يعرضه لغضب الرب الإله، لا إله فارس بالطبع، وإنما إله إسرائيل الذى تمكن من قلبه ووجدانه.

«كل ما أمر به إلـه السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملك وبنيه؟!» (عزرا ٧/ ٢٣).

كما تم إعفاء الكهنة واللاويين وقطاع عريض من الإسرائيليين من أداء الجزية أو الخراج أو الخفارة، بأمر الملك الفارسى (عزرا ٧/ ٢٥).

ثم يأتى القول الفصل من قبل الملك الفارسى المؤمن:

«وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفى أو بغرامة المال أو بالحبس» (عزرا ٧/ ٢٦).

هل يمكن أن تكون هذه السلوكيات كلها إلا سلوكيات رجل مؤمن تقى، تمكن إله إسرائيل من قلبه وكيانه؟!

لكن الأسفار العبرية المقدسة لا تقول ذلك تصريحًا.

وتاريخ الفرس آنذاك لا يشير إلى ذلك لا تصريحًا ولا تلميحًا.

ويبقى اللغز.

لغز إعادة بناء الهيكل، بلا إيضاح لنا، ولا لتلك الأجيال التى تقرأ هذه الأسفار.

ثم يروى نحميا قصته مع الملك الفارسى أرتحشستا، والدور الذى لعبه كل منهما من أجل «تعمير أورشليم» بعد خرابها وهدمها على أيدى البابليين.

ويبدو أن التاريخ - كما يقال - يعيد نفسه. يقول نحميا:

«ولما سمع سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى وجشم العربى (لما سمعوا بإعادة بناء أورشليم) هزأوا بنا واحتقرونا وقالوا: ما هذا الأمر الذى أنتم عاملون؟. أعلى الملك تتمردون؟. فأجبتهم وقلت لهم: إن إله السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده، نقوم ونبنى، وأما أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر فى أورشليم» (نحميا ٢/ ١٩ - ٢٠).

ومع أن اليبوسيين - أصحاب أورشليم وسكانها الأصليين - هم من العرب، إلا أن النبى الإسرائيلى نحميا، يتجاهل التاريخ ويعمد إلى تزويره بحجة أنه لا حق ولا ذكر - لغير الإسرائيليين - فى أورشليم.

لعمرى إنها نفس الفرية التى تتداول بعد ما يقرب من خمسة وعشرين قرنًا من الزمان.

فالإسرائيلى، هو الإسرائيلى، يزور التاريخ.

والعربى، هو العربى، يجهل التاريخ.

خمسة وعشرون قرنًا من الزمان، لم تغير العقليتين: الإسرائيلية، والعربية.

ولم يأبه الإسرائيليون العائدون من المنفى باعتراضات سائر الشعوب المقيمة فى أورشليم وسائر الدول المجاورة، وواصلوا البناء.

وتمسك العرب - تمامًا كما يحدث فى يومنا هذا - برفع شكواهم إلى القوة العظمى الوحيدة آنذاك، دولة الفرس، الحليف المطلق لليهود، والحامية لوجودهم، والداعمة لعودة يهود المنفى.

«ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رممت، والثغر ابتدأت تسد، غضبوا جدًا» (نحميا ٤/٧).

وموقف الشعوب والدول المجاورة لدولة اليهود لم يتغير منذ آلاف السنين، وروايات العهد القديم كأنها تقص علينا ما يحدث فى القرن العشرين.

وظل نحميا يماطل العرب والشعوب الأخرى ويتبادل معهم الرسائل، حتى أتم بناء السور وأنهى تحصين أورشليم فى اثنين وخمسين يومًا

(عزرا ٦/ ١٥).

ويستمر نحميا فى رواية ذكرياته عن إعادة تعمير أورشليم، وفيها نجد اختلافًا عما ذكره عزرا، ولا نعلم من فيهما أصدق من الآخر.

ثم سكن اليهود أورشليم «بالقرعة» واحد من بين كل عشرة، بينما سكن الباقون فى سائر المدن (نحميا ١١/ ١).

ويمكن القول: إن إعادة بناء الهيكل بعد النفى، وإعادة سكنى أورشليم، قد مثلت مرحلة «ولادة» جديدة للشعب الإسرائيلى، وكأن شيئًا لم يحدث، فالعهد والوعد قد تجددا للشعب، ومع ذلك، لم يتمكن القوم من الحفاظ على ما عاهدوا الرب عليه، وعادوا لارتكاب المحظورات، ولفعل المحرمات، وخرق الوصايا والشرائع. (نحميا ١٣/ ١٥ - ٢٩).

وخلاصة القول: إن إعادة بناء هيكل فى أورشليم قد تمت، لكننا لا نعرف إذا ما كان البناء قد تم فى نفس مكان هيكل سليمان أم غيره، بيد أننا نجد ما يفيد بأن الهيكل الجديد قد اختلفت أبعاده - بالزيادة - عن هيكل سليمان.

كما لا نعدم الإقرار العلنى من قبل العائدين من المنفى بالمساهمة الأجنبية والدعم المادى والمعنوى من قبل دولة الفرس بملوكها المختلفين، والمساهمة فى عملية البناء ذاتها من قبل غير اليهود، واستجلاب مواد البناء من ممالك وبلدان الأمم الأخرى.

ويحتل الإسكندر الأكبر اليونانى فلسطين عام ٣٣٢ ق.م، ويتودد اليهود إليه، ويستولى بطليموس الأول «سوتير» - بعد موت الإسكندر الأكبر - على أورشليم حوالى عام ٣١٠ ق.م حيث أسر كثيراً من سكانها ونقلهم إلى الإسكندرية، ليزحف عليها بعد ذلك ملك سوريا أنطيوخوس السلوقى اليونانى عام ٢٠٣ ق.م، ثم يستردها منه القائد البطلمى المصرى «سكوباس» عام ١٩٩ ق.م. حدثت بعد ذلك فتنة كبيرة استطاع أن يستغلها الحاكم السورى أنطيوخوس إبيفانس، الذى زحف على أورشليم عام ١٧٠ ق.م ونهبها، ليأتى - بعد عامين فقط - قائده أبولونيوس ويقتحم الهيكل ويقيم فيه تمثال أنطيوخوس، ويبنى بجواره مسرحًا للتمثيل، وهنا تحدث ثورة اليهود المكابيين الحشمونيين ضد اليونان بزعامة متتياهو، ويتم يهوذا المكابى هذه الثورة عام ١٦٥ ق.م، ويتمكن من طرد اليونان من قلعة صهيون، إلا أن اليونان قد تمكنوا بقيادة أنطيوخوس السابع «سيديتاس» فى عهد يوحنا هيرقانوس المكابى من العودة مرة أخرى.

ويزحف القيصر الروماني «بومبي» على فلسطين ويحتلها عام ٦٦ ق.م وقتل من اليهود في القدس - حسب الروايات - ما يقرب من اثنى عشر ألفًا، وقام اليهود بأنفسهم بتخريب وتحريق أورشليم، وتشتد الاضطرابات في أورشليم، ويزحف الحاكم السوري الروماني على المدينة ويدخل الهيكل وينهب ما بقي فيه من ذهب وفضة.

ولما زار يوليوس قيصر فلسطين سمح لليهود ببناء الأسوار المتهدمة في أورشليم، وأمّر هيرودوس حاكمًا عليها، ولم يدخر هيرودوس وسعًا في بناء الحصون ودعم المدينة، وأعاد زخرفة الهيكل، وعاش الملك المتهود «مونابازر» وأمه المتهودة كذلك «هيلانة» في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة.

ولم يكف اليهود عن خلق المشاكل للرومان، ومن هنا قرر الإمبراطور الروماني «فسبازيان» التخلص منهم والقضاء عليهم، وأرسل ابنه «تيتوس» قائدًا لجيش كبير، قام بتخريب أورشليم في ٨/ ١٢/ ٧٠م وتدمير الهيكل وإجلاء اليهود عنها، وهو «السبي الأخير» الذي ظل اليهود فيه حتى إعلان قيام دولتهم في فلسطين عام ١٩٤٨م.

وفي عام ١٣٦ حاول بقايا اليهود بقيادة «بركوكبا» القيام بثورة مسلحة ضد الرومان، لكن الإمبراطور الروماني هدريان تمكن - بعد جولات من الصراع مع هؤلاء الثائرين - من محاصرة من بقي من اليهود في أورشليم، وهدم كل ما وجده في المدينة، وأقام مكان الهيكل معبدًا للإله الوثني جوبتر - كبير آلهة الرومان - ونصب تمثالاً كبيرًا لهذا الإله، وقرر تغيير اسم المدينة في محاولة لطمس كل ما يمكن أن يكون ذا علاقة باليهود، وجعل اسمها «إيليا كابيتولينا» ومنع اليهود من دخولها، بل

وجعل عقوبة الموت لمن يقدم منهم على ذلك، ثم سمح لهم بعد ذلك بزيارة المدينة يومًا واحدًا فى السنة، والوقوف على جدار - غير معلوم الأصل والنشأة - بقى قائمًا من السور فى الجزء الغربى من المدينة وهو الذى يسمى بحائط المبكى، ويسميه اليهود بالجدار الغربى، وظلوا - وما زالوا - يزورونه ويبكون عنده على خطاياهم وآثامهم هم وأسلافهم، تلك الخطايا التى دفعت الرب إلى تدمير المدينة، وتشتيت من كان فيها من اليهود(١).

ويزعم البعض من اليهود أن هذا الجدار ليس إلا بقية من سور داود، وقال البعض: إنه جزء من حائط سليمان، ونسبه آخرون إلى المكابيين اليهود أو إلى هيرودس اليهودى(٢)، إلا أن الحفائر الإسرائيلية التى جرت - وما زالت - منذ احتلال القدس عام ١٩٦٧م لم تسفر عما يمكن أن يدعم هذه المزاعم على الإطلاق.

ويرتفع «حائط المبكى» - الذى اشتهر بهذا الاسم - عن سطح الأرض بحوالى ثمانية عشر مترًا، الستة الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة هى من نفس نوع أحجار أساسات هذا السور، يضاف إليها من فوق أربعة عشر سطرًا من حجارة أصغر يبدو أنها جزء من عملية «تعلية» للحائط، وترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده.

أما الأساس المطمور للسور تحت الأرض، فهو مكون من تسعة عشر سطرًا من الأحجار المستطيلة الضخمة، وبالإمكان رؤية جزء من هذا

---

(١) انظر: مائير بن دوف، الإنسان والحجر فى أورشليم، مرجع سبق ذكره، ص: ٥٤، ٥٥، ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص: ٩٢، ٩٣.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٧، ٣٨.

الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت، ولم تبق سوى نتوءات تبرز من مسافة إلى أخرى، وهناك اثنا عشر مترًا من الضلع الجنوبى للسور ما تزال بارزة، وهى بقية العقد المقوس الذى كانت تعلوه القنطرة من جبل صهيون إلى الهيكل[1].

ولكن، ماذا عن قبة الصخرة، أو ما يسمى بالصخرة المقدسة؟!

لا تشير أسفار العهد القديم إلى أية صخرة مقدسة، تقول رواية سفر صموئيل الثانى (٢٤/١٨) فيما يتعلق بمذبح الرب الذى أقامه داود:

«فجاء جاد فى ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد وأقم للرب مذبحًا فى بيدر أرونه اليبوسى، فصعد داود حسب كلام جاد كما أمر الرب».

وجاد هو رائى داود ونبيه (صموئيل الثانى ٢٤/ ١١).

وهو الذى حدد مكان المذبح، وإن كانت هناك عبارة «كما أمر الرب»، مع أننا لم نجد هذا الأمر الإلهى ولم نعثر عليه من قبل، وأسلوب النصوص المقدسة فى هذا واضح، فقد كان الرب يصدر أوامره إلى النبى، ثم يعيد النبى إصدار الأوامر مرة أخرى للملك أو الشعب، فنحن هنا نفتقد «النص الأصلى» للأمر الإلهى بتحديد مكان المذبح فى بيدر أرونه اليبوسى.

كما أن العبارة برمتها تشير إلى إقامة مذبح، لا إلى بناء هيكل وقصر، ولا نجد أية إشارة لصخرة بعينها.

لكن الروايات التلمودية تقول: إن داود جعل من الصخرة التى على

---

(١) المرجع السابق، ص: ٣٨.

الهضبة مذبحًا للرب، وراحت تحيك الأساطير حولها فقيل (توسفتا - يوما/ ٨٤، ٨): إن الرب قد بدأ الخلق من هذه الصخرة. وقال الحبر اليعازر البابلى: إن الصخرة هى أصل خلق الأرض، وإن صهيون هو سرة العالم (التلمود البابلى - يوما/ ٥٤).

وجاء فى أحد كتب التصوف اليهودى - وهو كتاب «زوهر» - أن يعقوب قد نام على الصخرة وهو منطلق من بيت إسحق أبيه، مع أن رواية سفر التكوين (٢٨/ ١٦ - ١٧) تخبرنا أنه قد نام فى «بيت إيل» بالقرب من نابلس.

ويشير التلمود إلى أن هذه الصخرة المقدسة ترتفع عن سطح الأرض ثلاثة أصابع فقط (يوما/ ٨٥ - ٣، ٤؛ توسفتا ٦/٨٣)، ويذكر ابن ميمون فى كتابه «طقوس يوم الغفران» نفس الشىء المذكور فى التلمود.

لكن الصخرة الموجودة حاليًا ترتفع نحو متر كامل عن سطح الأرض، ومحيطها يصل إلى عشرة أمتار، وتحتها فجوة هى بقية مغارة قديمة، عمقها أكثر من متر ونصف، وتبدو الصخرة من فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار.

وقد شكك كثيرون فى أن تكون هذه الصخرة التلمودية هى الصخرة الموجودة حاليًا فى الحرم الشريف، ونحن بوسعنا أن نتشكك كذلك، بل وأن نسأل أنفسنا، ونسأل اليهود أيضًا، عما يمكن أن يكون قد فعله بها بختنصر وأنطيوخوس بيفانس وتيتوس وفسبازيان وهدريان والصليبيون[١]،

---

(١) جرائم الصليبيين فى القدس والهيكل مفصلة فى: ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد البازى العرينى، ط، بيروت، ١٩٦٧، ص: ٣٩٣ وما بعدها.

وغيرهم ممن كروا على أورشليم، وخربوا ودمروا كل ما فيها(١).

ولعل هذا كله يبطل الزعم اليهودى القائل : إن مسجد قبة الصخرة، قد قام مقام الهيكل(٢).

وما دمنا فى هذا الصدد قد تحدثنا عن الهيكل، أو «الهياكل» - بتعبير أدق - التى تمت إقامتها، وقمنا بوصفها تفصيليًا اعتمادًا على نصوص العهد القديم، وشهادات الباحثين، فمن المتمم للفائدة هنا أن نوضح حقيقة ما يردده اليهود من أن الحرم الشريف قد أقيم مقام الهيكل.

فمن حيث المساحة، هناك دراسة للأثرى الفرنسى «دى سولسى» فى كتابه «تاريخ الفن اليهودى»، يشير فيها إلى أن مقاييس الحرم الإسلامى الشريف هى الضلع الشرقى لسور الحرم بطول ٣٤٨ مترًا، والضلع الجنوبى بطول ٢٢٥ مترًا، أما الضلع الغربى فيمتد فى خط مستقيم وبزاوية متعرجة، وبهذا يصبح الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من الجنوبى، وعليه فإن مساحة الحرم الشريف أكبر من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان أو نحميا أو هيرودس.

كما أن الحرم الشريف مستطيل يأخذ اتجاهه من الشمال إلى الجنوب فى اتجاه قبلة مكة المكرمة، بينما يتجه هيكل سليمان - برغم استطالته - الاتجاه من الغرب إلى الشرق(٣).

ومن ناحية أخرى، فإن أسوار مدينة القدس التاريخية الشهيرة، تجعل

---

(١) المزيد حول هذه الصخرة فى: حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦ : ٢٨.

(٢) انظر: مائير بن دوف، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٨.

(٣) حسن ظاظا، الصهيونية العالمية وإسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص: ١١٦، ١١٧.

من هذه المدينة مدينة مربعة، طول كل ضلع منها حوالى كيلو متر تقريبًا، وتحتوى على أبواب، وفـى وسطها يوجد مسجـد عمر وقبـة الصخرة فى هذا الحرم المقدس، والذى يسمى كله بالمسـجد الأقصى الآن، وعلى بعد نصف كيلو متر تقريبـًا غرب هذا المسجد توجد كنيسة القيـامة التى يعتقد المسيحيون أن المسيح قد قام بعـد صلبه ورفع إلى السماء من هذه البقعة، وقد بنى الإمبراطور قسطنطين هذه الكنيسة فى هذا الموضع.

وتعتبـر هذه المنطقة بالفعل منطقة قبـور، إذ اكتشفت بها قـبور عديدة تعتبر أكبر شاهد على أن ادعاء اليهود أن أرض الحرم وأرض كنيسة القيامة تابعة لمدينة داود وسـليمان ادعاء بـاطل، وذلك لأن الشريعة الإسـرائيلية تحرم دفن الموتى فى المدينة المقدسـة، وحتى ملوك إسرائيل القدامى: داود وأبشالوم وسليمان. . . إلخ، كلهم مدفونون خارج الأسوار.

وليس من المعـقول - على الإطلاق - أن يدفن ملوك إسـرائيل خارج الأسوار ويسمح بدفن أشـخاص كانوا يعتبـرون معاقبين ومـجرمين داخل الأسوار.

وبالتالى، فمن المؤكد أن الأسوار الشرقية لعاصمة داود وسليمان كانت غرب كنيسة القيامة.

وبالتالى - أيضًا - يكون كل الجزء العربى من القدس، ابتداءً من بيت بنى نسيبه (سدنة كنيسة الـقيامة) إلى آخر باب الأسود المشرف على وادى سـباط فى أقـصى الشرق مـن المدينة، كل هذا كان فلـسطينيًا منذ أقـدم العصور، ولم تطؤه قدم يهودية، ولم يخضع للقضاء اليهودى إطلاقًا.

* * *

الفصل الرابع

مكانـة أورشليـم

عنـد آبـاء إسرائيـل وملوكهـم

من المثير للانتباه حقًا، ألا نجد ذكرًا لمدينة أورشليم - التى يتمسك بها الإسرائيليون أكثر من دينهم نفسه - فى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والمسماة بالتوراة، والتى تعترف بها كل الفرق والطوائف اليهودية، حيث تبقى بقية أجزاء العهد القديم البالغة أربعة وثلاثين سفرًا محل اختلاف، لا بين اليهود فحسب، بل بين المسيحيين فى العالم بأسره كذلك.

لم يذكر «الآباء» الأوائل للإسرائيليين القدس، فلم تكن هذه المدينة تعنى إبراهيم (عليه السلام) من قريب أو بعيد، ولم يذكرها على الإطلاق ابنه إسحق ولا حفيده يعقوب ولا الأسباط الإثنا عشر.

لم يذكرها كذلك - وربما لم يعرفها - موسى (عليه السلام)، ولا الخارجون معه من مصر، ولا حتى يشوع الذى بدأ الغزو الإسرائيلى لفلسطين.

ومع أن ملك أورشليم - أدونى صادق - قد تحالف مع ملوك آخرين، حيث توجهت قوات التحالف الأمورى إلى جبعون والجلجال فى طريقها لمحاربة قوات الغزو الإسرائيلى بعدما شاع عنهم ما ارتكبوه من فظائع فى حق المدن الفلسطينية التى حاربوها، ومع أن يشوع قد تمكن من هزيمة قوات التحالف، بل وقتل يشوع ملوك التحالف الخمسة «وعلقهم على خمس خشب وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء» (يشوع ١٠/٢٦)، مع كل هذا، لم يخطر ببال يشوع احتلال أورشليم وتركها لمن بقى من أهلها بعد الهزيمة، «إذ رآها غير ذات قيمة بالنسبة له - ولمن معه من

قوات غازية - من الناحية الاستراتيجية»[١]، وظلت أورشليم خلال قرنين ونصف القرن من الزمان - هى الفترة الفاصلة بين يوشع وداود - فى أيدى اليبوسيين، على نحو ما يقر ذلك الباحثون بلا اختلاف[٢].

ولم تكن لأورشليم أية خصوصية أو قداسة فى عصر القضاة، وهو العصر الفاصل بين يشوع والملكية، ودليل ذلك ما جاء فى سفر القضاة:

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار» (١/٨).

فلو أن ثمة تقديس أو حتى احترام لأورشليم، ما وصل الأمر إلى إهلاك من فيها، وحرقها بالنار.

وفى عصر داود - كما تروى أسفار الكتاب المقدس - لم تكن للمدينة فى نفس داود وأولاده أية قداسة أو مهابة.

فسفر صموئيل الثانى يخبرنا أن داود قد زنا مع زوجة أوريا الحثى فى أورشليم (١١/١ - ٢٦).

وأمنون بن داود قد سار على سنة أبيه فى الزنا، وزنا بأخته ثامار فى أورشليم كذلك (١٣/ ١ - ١٥).

وأبشالوم بن داود يؤكد عدم قداسة أورشليم ويدنسها بالزنا أيضًا، وعلى مرأى ومسمع من كل بنى إسرائيل، حيث زنا بسرارى أبيه، على نحو ما تم تفصيله فى نفس السفر ١٦/ ١٥ - ٢٣).

---

(١) موشى برلمان وتيدى كوليك، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٢.

(٢) المرجع السابق.

وتآمر أبشالوم بن داود لقتل أخيه أمنون فى أورشليم (١٣/٢٨ - ٣٥) دون أن تكون للمدينة - آنذاك - أية حرمة أو مكانة فى النفس الإسرائيلية.

داود وأورشليم

كانت أورشليم فى زمن داود أهم مدن الداخل من الناحية الاستراتيجية، فهى تتحكم فى الطريق الرئيس بين الشمال والجنوب، وتشكل «الوصلة» بينهما، وكان فشل بنى إسرائيل - حتى ذلك الوقت - فى الاستيلاء عليها سببًا من أهم الأسباب التى أدت إلى ظهور تجمعين منفصلين من أسباط بنى إسرائيل، ومن ثم قيام مملكتين منفصلتين: إسرائيل شمالاً، ويهوذا جنوبًا، ولم تكن أورشليم آنذاك تابعة أو ملحقة بأىٍ من هاتين المملكتين، بل كانت أرضًا محايدة».

ويذكر أنه بعد موت شاؤل - أول ملك فى تاريخ بنى إسرائيل - انقسم القوم إلى فريقين، الفريق الأول قام بتنصيب «إيشبوشت بن شاؤل» ملكًا على كل إسرائيل، بينما قام الفريق الثانى - وهم سبط يهوذا - باختيار داود وتنصيبه ملكًا فى حبرون (صموئيل الثانى ٢/٨ - ١١)، ولم يكن اختيار داود هنا، والذى تم بوساطة سبط يهوذا، ذا صبغة مقدسة، فهو لم يعين من قبل أى نبى، ودليل ذلك هو إجماع الأسباط الأخرى على تعيين «إيشبوشت» بن شاؤل[1].

ونشب صراع سياسى بين بيت شاؤل وبيت داود: «وكانت الحرب طويلة بين بيت شاؤل وبيت داود، وكان داود يذهب يتقوى وبيت شاؤل يذهب يضعف» (صموئيل الثانى ٣/ ١).

---

(١) رجاء جارودى، فلسطين أرض الرسالات، مرجع سبق ذكره، ص: ١٢٢.

واستمر الصراع الذى استطاعت «الاغتيالات الداخلية» أن تحسمه لصالح داود، حيث تم اغتيال «إيشبوشت»، وجاء جميع أسباط إسرائيل إلى داود إلى حبرون وتم تنصيبه ومسحه ملكًا من قبل شيوخ إسرائيل (صموئيل الثانى ٥/ ١ - ٣).

وتخبرنا روايات سفر صموئيل الثانى مباشرة بعد تنصيب داود ملكًا على كل إسرائيل بتوجهه ورجاله «إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض» لاحتلال المدينة.

وقضية احتلال داود لأورشليم لا تحظى بالاهتمام اللائق بها إذا قارنا تفاصيلها مع ما يزعمه الإسرائيليون من مكانة للمدينة فى نفوسهم وتاريخهم، ومن ثم ينبغى ذكر هذه التفاصيل للوقوف على دقائقها وما تعكسه لنا من ملابسات.

«كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، ملك أربعين سنة، فى حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفى أورشليم ملك ثلاثًا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا، **وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض**، فكلموا داود قائلين: لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج، أى لا يدخل داود إلى هنا، وأخذ داود حصن صهيون، هى مدينة داود، وقال داود فى ذلك اليوم: إن الذى يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة والعرج والعمى المبغضين من نفس داود، لذلك يقولون لا يدخل البيت أعمى أو أعرج، وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود، وبنى داود مستديرًا من القلعة فداخلاً، وكان داود يتزايد متعظمًا والرب إله الجنوب معه» (صموئيل الثانى ٥/ ٤ - ١٠).

النص السابق علـى نحو ما نرى - وهو الوحـيد الوارد حول احـتلال داود لأورشليم - غامض تمامًا.

فهو لا يفيد غزو المدينة أو احتلالها على الإطلاق، وإنما يشير وحسب إلى إقامة داود فى حصن صهيون.

وليس ثمة قتال بين داود ورجاله من جانب، واليبوسيين سكان المدينة من جانب آخر.

ولا نجـد أثرًا لتـدخـل «إله الجنود» فى تلك الواقـعـة، على عكس تدخلاته المباشرة، وتخطيطه وقيادته لمعارك يشوع.

يقـول الإسرائيليـان موشى برلمان وتيـدى كوليك: «لا يتـضح لنا من مرويات العـهد القديم وأحداثه كـيف تغلب داود على اليبوسـيين سكان أورشليم فى بداية ملكه، وربما قبل أن يمسح ملكًا على كل إسرائيل، أو بعد أن حسم أمره مع الفلسطينيين، لم يسـتطع كثير من العلماء حل تلك المسألة، وهناك حيرة كبيرة بشأن خطة احتلال المدينة»[١].

وتبقى قـضيـة القناة والعرج والعـمى محيـرة لمفسـرى وعلماء العـهد القديم.

لم نلاحظ ضمن ملابسـات الغزو للمدينة إذن ما هو مـعهود فى تلك المعارك المقدسة التى خاضهـا الإسرائيليون من قبل، فليس ثمة أمر إلهى، ولا وعد ربانى بالنصر، ولا تخطيط من قبل إله إسرائيل، ولا طقوس هنا تتعلق بالعمليات العسكرية.

---

(١) مرجع سبق ذكره، ص: ٢٧.

والأكثر من ذلك أنه بعد الاستيلاء على المدينة، لم يقم داود ومن معه - كعادة الإسرائيليين آنذاك - بذبح السكان الأصليين وإبادتهم، بل حتى ولا بطردهم، بل أبقاهم، وبذل جهداً خاصاً فى كسبهم إلى جانبه، وفى الوقت نفسه، وجه اهتمامه - على صعيد عسكرى - بترميم أسوار المدينة، وباحتلال قلعة «صهيون»، وأقام ثكنات لرجاله، وبنى قصراً لنفسه، ثم أتى بعد ذلك «بتابوت العهد» الذى كان أثمن أثر دينى يملكه الإسرائيليون ويعد رمز وحدتهم، وجعله فى حماية عرشه وجيشه، رامياً من وراء ذلك إلى دمج هويته كملك بهوية الشعب وديانته، وأميناً للعرش، حتى يظل فى سلالته من بعده(١).

وهنا يعن لنا سؤال: لماذا اختار داود مدينة اليبوسيين - أورشليم - لينقل إليها عاصمة ملكه من حبرون؟!

هل ثمة توجيه إلهى، وأمر سماوى، يتعلق بقداسة المدينة ومكانتها عند الرب وعند الشعب؟

إن العوامل الكامنة وراء اختيار داود لأورشليم كى تكون عاصمة مملكته الموحدة كانت عوامل سياسية واستراتيجية بحتة.

فمن الناحية السياسية، كان استمرار داود فى قيادة شعبه من مدينة حبرون «الخليل» التى ترتبط بأسباط الجنوب من شأنه أن يوحى بانحيازه الواضح إلى مملكته السابقة - مملكة يهوذا - قبل توحيد الشمال والجنوب، ومن ثم كان عليه اختيار «مدينة محايدة»، لا تنتمى للشمال أو الجنوب،

---

(١) Paul Johnson, A History of the Jews, N. Y., Harper & Row, 1988, pp. 56 - 57.

وفى نفس الوقت كانت قريبة من ديار سبط يهوذا، عشيرة داود، لكنها ليست من نصيب أى سبط من الأسباط[١]، وفقًا «لتقسيم الأراضى» الذى قام به يشوع إثر غزو فلسطين وأرض كنعان.

أما من الناحية الاستراتيجية، فإن أورشليم وعرة المسالك بالنسبة للقادمين من الأردن أو البحر أو الشمال، وهى حصينة غير مكشوفة للغزاة، وكانت تقع فى وسط عشائر فلسطينية قديمة، يبدو أنهم كانوا يميلون إلى المسالمة أكثر من أهل الشمال[٢]، لقد كانت أورشليم ذات تحصينات منيعة، وتقع فى مكان مرتفع وسط التلال، مما يحقق لها الأمن من أى اعتداء مفاجئ يقوم به الفلسطينيون أو قبائل سيناء والنقب، أو أى من المملكتين الجديدتين: مملكة عمون ومملكة موآب على الضفة الشرقية لنهر الأردن[٣]، ويؤكد لنا تلك الأهمية الاستراتيجية ذلك التركيز من قبل داود على الاستيلاء على جبل أو حصن صهيون وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن أورشليم.

ولما كان داود قد استولى على أورشليم بجنوده هو، فقد أصبحت المدينة - وفقًا لعادات المنطقة - من ممتلكاته الشخصية، ويعكس هذا المفهوم تغيير اسم المدينة إلى مدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٩)، وهناك من يرجح هذا الانتقال السلمى - دون حروب أو معارك - للحكم من أيدى اليبوسيين فى أورشليم إلى داود والإسرائيليين، إنما كان بمثابة

---

(١) دروس فى التاريخ للمدارس الحكومية، ط١، إعداد: وحدة المناهج الدراسية بوزارة التعليم والثقافة فى إسرائيل (بالعبرية)، ص: ١٤.

(٢) حسن ظاظا، أبحاث فى الفكر اليهودى، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٦.

(٣) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٨٠.

«انقلاب عسكرى» تمكن داود وجنوده من خلاله من احتلال مكان الملك اليبوسى وحاشيته المقربة، دون المساس على الإطلاق لا بالمدينة ولا بسكانها، على النحو المألوف فى تاريخ الغزوات الإسرائيلية، وربما مهد لذلك أيضًا ما تشير إليه الفقرات العديدة من الكتاب المقدس من تعايش سلمى بين اليبوسيين والإسرائيليين منذ زمن:

«وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، **فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم**»

(يشوع ١٥/ ٦٣).

«وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، **فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم إلى هذا اليوم**» (قضاة ١/ ٢١).

فلولا أن ثمة علاقة بين الغازين الإسرائيليين واليبوسيين سكان أورشليم الأصليين، ما التزم داود العدل والرحمة تجاه المغلوبين، وهو «رجل الدماء» (صموئيل الثانى ١٦/ ٧).

كما لم نسمع - على كثرة تفاصيل العهد القديم مع الأمم الوثنية - عن تدخل من جانب داود، بأى شكل من الأشكال - فى الدين المحلى للسكان، بل إن الأفكار الدينية والعقائد التى تحمس لها اليبوسيون قد اندرجت فى سياق تطوير ديانة «يهوه» إله إسرائيل فى أورشليم.

لقد شهدت «مدينة داود» الجديدة تفاعلاً خلاقًا بين التقاليد اليبوسية والتقاليد الإسرائيلية، وانعكس ذلك على تلك الاستجابة السخية من قبل أرونة اليبوسى (ولعله آخر ملوك اليبوسيين فى المنطقة) لمنح «بيدره» لداود، كى يبنى مكانه مذبحًا لإله إسرائيل، بل ودعا أرونة لداود وباركه:

«وقال أرونة (لداود) لماذا جاء سيدى الملك إلى عبده، فقال داود: لأشترى منك البيدر لكى أبنى مذبحًا للرب، فتكف الضربة (الوباء الذى أنزله الرب بشعبه إسرائيل)، فقال أرونة لداود: فليأخذه سيدى الملك ويصعد ما يحسن فى عينيه. انظر: البقر للمحرقة والنوارج وأدوات البقر حطبًا، الكل دفعه أرونة المالك إلى الملك، وقال أرونة للملك: الرب إلهك يرضى عنك. فقال الملك لأرونة: لا، بل أشترى منك بثمن ولا أصعد للرب إلهى محرقات مجانية» (صموئيل الثانى ٢٤/ ٢١ - ٢٤).

هذا التعامل اللين بين الملك داود وبين اليبوسى مالك البيدر، ربما يفسر لنا ذلك «الاحتلال السلمى» لأورشليم، كما يعكس لنا التفاعل بين المحتلين وسكان البلاد.

ومما لا شك فيه، أن داود كان بحاجة لجهود اليبوسيين فى المدينة وخبرتهم فى الشؤون المالية والسياسية، إذ لم يكن الغازون يتمتعون بالخبرة اللازمة لإدارة شؤون المملكة التى تعتبر نظامًا سياسيًا جديدًا غير مألوف ولا معهود فى التاريخ الإسرائيلى الذى لم يشهد من النظام الملكى سوى عصر شاؤل المضطرب.

وكان داود قد أخذ من نساء أورشليم زوجات له - وأبرزهن بتشبع زوج أوريا الحثى اليبوسى (صموئيل الثانى ١١/ ٣ - ٢٦)، التى أنجب منها ابنًا.

وقصة زواج داود من هذه المرأة، والتخلص من زوجها - اليبوسى - أحد جنود جيش داود، لتشير إلى بقاء العنصر اليبوسى ومشاركته فى شؤون المملكة الداودية الجديدة، ولو كان هذا العنصر محل ريبة أو شك،

ما جعله داود فى الجيش.

ومعنى ما سبق، أن ابن داود، كان نصفه - من ناحية الأب - إسرائيليًا، ونصفه الآخر - من ناحية الأم - حثى يبوسى، وإذا أخذنا بالقوانين اليهودية، فإن الابن تابع لأمه، ومن ثم، فابن داود والمسمى «يديديا = محبوب الإله يهوه» يبوسى تمامًا.

وهناك من يرى[1] أن النبى ناثان - المعاصر لداود - (صموئيل الثانى ١٢/١ - ١٥) ربما كان يبوسيًا، بل ومن المحتمل أنه كان مستشارًا للملك اليبوسى، وعليه يمكن أن يكون قد لعب دور «الوسيط» بين داود ورعيته اليبوسية، وناثان هو الذى عنّف داود إثر مقتل أوربا الحثى اليبوسى، لا لسبب أخلاقى واضح، وإنما لأن مثل هذا التصرف من جانب داود من شأنه أن يضر بالعلاقات الإسرائيلية - اليبوسية.

وحجة هذا الرأى تتلخص فى أن الكتاب المقدس يعمد دائمًا إلى ذكر أصول جميع أنبياء بنى إسرائيل، إلا فى حالة هذا النبى، الذى حتى لم يذكر الكتاب المقدس اسم أبيه.

ويذهب أصحاب هذا الرأى - كذلك - إلى أن صادوق - رئيس كهنة أورشليم - كان من اليبوسيين، استنادًا إلى أن الاسم «صادوق» يبوسى، الأمر الذى دفع كاتب سفر أخبار الأيام إلى الإمعان فى تأصيل نسب هذا الكاهن - الذى حرص جميع كهنة إسرائيل فيما بعد على الانتساب إليه - وربطه بنسل هارون، وإن كانت سلسلة النسب المذكورة بشأنه أطول بخمسة أجيال من عدد الأجيال التى من المفترض أنها قد انصرفت ما بين

---

(١) كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٨٤.

داود وهارون (أخبار الأيام الأول ٦/ ١ - ١٥).

وبالحنكة السياسية التى اتسمت بهـا شخصية داود، وفى خطوة جريئة لتوطيد ملكه من ناحية، ولتهويد أورشليم من ناحية أخرى، استقدم داود من المدينة الكنعانية «قريات يعاريم» تابوت العهد الذى أخذه من الفلسطينيين، وأودعه فى أورشليم، ليجعل من هذه المدينة - رمزيًا - مركزًا للرابطة بين الأسباط الاثنى عشر، وهو يربطهم بماضيهم المقدس[1]، وهذا التصرف - فى نفس الوقت - يرضى سكان المملكة الشمالية الذين كانوا لا يزالون ينظرون إلى داود بعين الريبة والشك. فالتابوت يضم أقدس ما لبنى إسرائيل، ومن شأنه - فى نظر داود - أن يضفى الشرعية على حكمه، وفى الوقت ذاته، يغير من طابع أورشليم اليبوسى، بل ويقضى على البقية الباقية لأى أثر يبوسى عقدى.

وكان نقل التابوت - الذى يفيد ضمنًا موافقة الرب على الإقامة فى مدينة داود - دليلاً واضحًا على أن الرب قد اختار داود ليكون ملكًا على إسرائيل، وعلى هذا النحو، أصبح اختيار الإله «يهوه» لصهيون «كمحل إقامة دائم» له، مسألة ترتبط بشدة باختيار بيت داود، ويتجلى ذلك فى مناقشة داود لتلك القضية مع النبى ناثان، حيث عرض داود فكرة بناء بيت للرب الذى يعتمد عليه فى حكمه، لكن مشيئة الرب لم تتفق مع مشيئة الملك داود، فالرب قد أخبر النبى ناثان بحياة التجوال التى قضاها، وعدم رغبته فى بناء بيت لنفسه، لكنه أعرب عن رغبته فى بناء بيت لداود، أى أسرة حاكمة خالدة أبد الدهر.

---

(١) رجاء جارودى، مرجع سبق ذكره، ص: ١٢٣.

«وكان لما سكن الملك فى بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه أن الملك قال لناثان النبى انظر، إنى ساكن فى بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق، فقال ناثان للملك: اذهب افعل كل ما بقلبك؛ لأن الرب معك، وفى تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً: اذهب وقل لعبدى داود هكذا قال الرب، أأنت تبنى لى بيتًا لسكناى؛ لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن، فى كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبى إسرائيل قائلاً: لماذا لم تبنوا لى بيتًا من الأرز، والآن فهكذا تقول لعبدى داود، هكذا قال رب الجنود: أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسًا على شعبى إسرائيل، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسمًا عظيمًا كاسم العظماء الذين فى الأرض، وعينت مكانًا لشعبى إسرائيل وغرسته فسكن فى مكانه ولا يضطرب بعد ولا يعود بنو الإثم يذللونه كما فى الأول، ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبى إسرائيل، وقد أرحتك من جميع أعدائك، والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتًا، متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته، هو يبنى لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد»

(صموئيل الثانى ٧/ ١ - ١٣).

ومات داود دون أن يبنى بيتًا للرب فى أورشليم، وجاء سليمان ليرث ملك أبيه - وهو ابن اليبوسية بتشبع - مع أنه لم يكن الأحق بالميراث

وفقًا للتقاليد السائدة آنذاك بين بنى إسرائيل، لكننا وفقًا لما اعتدنا من حيل بموجبها يسلب الأخ حق أخيه، وعلى نحو ما تمكن يعقوب من التحايل والاستيلاء على حقوق أخيه عيسو، وشرف «البكورية» وبركة الرب، على نحو ذلك كله، وصل سليمان إلى كرسى الحكم بمساعدة أمه وحيلها (تمامًا كما فعل يعقوب بمعاونة أمه)، وأصبح سليمان ملكًا على بنى إسرائيل جميعًا.

ويبدأ سليمان عهده بتثبيت دعائم ملكه بالقضاء - أولاً وقبل كل شىء - على خصومه، وأول الخصوم أخوه «أدونيا»: يقول سليمان حالفًا بالرب: «والآن حى هو الرب الذى ثبتنى وأجلسنى على كرسى داود أبى والذى صنع لى بيتًا كما تكلم إنه اليوم يُقتل أدونيا» (سفر الملوك الأول ٢/ ٢٣ - ٢٤)، كما تم التخلص من شمعى وقتله بعد «تحديد إقامته» فى بيته بأورشليم لثلاث سنوات كاملة (الملوك الأول ٢/ ٣٦ - ٤٥)، وكان من الطبيعى أن يتخلص سليمان كذلك من أى سلطة دينية معارضة، فكان التخلص من أبيارثار الكاهن وعزله عن الكهانة (الملوك الأول ٢/ ٢٧)، والفتك بيوآب، الذى شكل ثقلاً عسكريًا مناوئًا، وذلك فى خيمة الرب (الملوك الأول ٢/ ٢٩ - ٣٥).

وكانت الخطوة التالية لتثبيت ملك سليمان، هى مصاهرة الملك لكثير من حكام وملوك «القوى العظمى» آنئذ، وبدأ بمصاهرة فرعون مصر، وأتى بابنة فرعون إلى «مدينة داود» (الملوك الأول ٣/ ١)، ناهيك عن مصاهرة الموآبيين والعمونيين والأدوميين والصيدونيين والحثيين، وكلها زيجات نهى إله إسرائيل عنها، لكن يبدو أن العامل السياسى هنا كان

أقوى من الوازع الدينى، على نحو ما تصوره لنا نصوص العهد القديم.

(الملوك الأول ١١/ ١ - ٢).

وكى يتم صبغ الملك السليمانى بالصبغة الدينية كاملة، كان لابد لسليمان بعد الخطوات السابقة أن يلجأ إلى ضمان «الشرعية اليهوية» لحكمه، ومن ثم كان بناء بيت الرب، تعضيداً للمملكة، وضماناً لرسوخها.

ولتحقيق ذلك، استعان سليمان بحيرام ملك صور، الذى أرسل له العمال والمعدات والمؤن لبناء بيت الرب فى أورشليم، والحديث عن هذا البيت له مقامه الخاص فى ثنايا هذه الدراسة.

وكانت مراسم تكريس البيت وتدشينه قد بدأت بنقل تابوت عهد الرب من صهيون (مدينة داود) إلى أورشليم فى حفل مهيب حضره شيوخ إسرائيل ورؤوس الأسباط ورؤوس الآباء من بنى إسرائيل (الملوك الأول ٨/ ١ - ٢)، وكان قبول الرب للسكنى فى هذا البيت صريحًا:

«وقال له (لسليمان) الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى، قدست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد، وتكون عيناى وقلبى هناك، كل الأيام»

(الملوك الأول ٩/ ٣).

وهناك ملاحظة يجدر أن نشير إليها ونحن بصدد النص السابق، وهى أن تقديس الرب هنا لم يكن لأورشليم ذاتها، بل للبيت الذى بناه له سليمان، فحتى هذه اللحظة لم تكن أورشليم ذات أهمية خاصة، لا عند

الرب، ولا عند الشعب، ولا عند الملك.

ولا نجد - حتى نهاية عصر سليمان - أى مظاهر تبجيل أو تقديس لأورشليم، أو حتى لـلبيت الذى بناه سليمان للرب، إذ انشغل سليمان بعد ذلك بتوسيع ملكه (الملوك الأول ١٠)، وبتوسيع دائرة ممتلكاته من النساء (الملوك الأول ١١/ ١ - ١٣) ثم بنشوب بعض المعارك.

(الملوك الأول ١١/ ١٤ - ٢٥).

كما واجه سليمان بعض حركات تمرد من قبل عبيده، وتجسد ذلك فى «يربعام بن ناباط الإفرايمى» (الملوك الأول ١١/ ٢٦) الذى لم يتمكن سليمان من قتله، حيث هرب يربعام إلى مصر فى عهد الملك شيشق، وعاش فيها حتى وفاة سليمان (الملوك الأول ١١/ ٤٠ - ٤٣).

وعاد يربعام من مصر بعد وفاة سليمان، وذهب إلى شكيم، وجمع معه الشعب وتوجه إلى الملك رحبعام بن سليمان ليعرض مطالبه هو ومن معه، إلا أن رحبعام أجابهم: «الآن أبى حملكم نيرًا ثقيلاً وأنا أزيد على نيركم، أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» (الملوك الأول ١٢/ ١١)، وكانت بداية الشقاق بين رحبعام ويربعام، وانقسمت مملكة سليمان وهى لا تزال بعد فى صباها.

واتجه يربعام إلى شكيم ولم تكن أورشليم فى ذلك الوقت تعنى له ولمن معه شيئًا على الإطلاق، بل لقد تحدى يربعام هذه المدينة، وسعى إلى سحب أى خصوصية لها، وهذا ما ترويه النصوص المقدسة:

«وبنى يربعام شكيم فى جبل أفرايم وسكن بها، ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل، وقال يربعام فى قلبه: لأن ترجع المملكة إلى بيت داود، إن

صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح فى بيت الرب فى أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونى ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا، فاستشار الملك وعمل عجلى ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحدًا فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان».

(ملوك أول ١٢/ ٢٥ - ٢٩).

ومن يمعن النظر فى النص السابق، سيجد أن أورشليم لم تكن ذات «خصوصية» فى ذلك الوقت، بل و«بيت الرب» ذاته لم يكن موضع قداسة، بدليل أن يربعام أراد تحويل أتباعه عن هذا البيت، وأقام بديلاً للناس فى شكيم، بل وانصرف تمامًا إلى عبادة العجول الذهبية، تلك العبادة التى أشربت فى قلوبهم منذ قرون[1].

وظلت أورشليم، كما ظل بيت الرب فيها، ولزمن طويل، لا يحظيان بأى قدسية فى نفوس بنى إسرائيل، وهاك الأدلة:

«وأما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا. . . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطايا هم التى أخطأوا بها، وبنوا هم أيضًا لأنفسهم مرتفعات وأنصابًا وسوارى على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضًا مأبونون فى الأرض، فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل»

(الملوك الأول ١٤/ ٢٢ - ٢٤).

---

(١) انظر: موفق محادين، دورة الدين اليهودى، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧، ص: ٢٠٠، ٢٠١

ثم جاء أبيام ملكًا على يهوذا لثلاث سنين فى أورشليم:

«وسار فى جميع خطايا أبيه التى عملها قبله، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه» (الملوك الأول ١٥/ ٢).

ومن مملكة إسرائيل، يتحرك بعشا ملكها إلى أورشليم فيجمع آسا - ملك يهوذا - كل ما بقى فى خزائن بيت الرب وبيت الملك من فضة وذهب، ويرسلها مع عبيده إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون - ملك آرام الدمشقى - بهدف تأليب هذا الملك الآرامى ضد ملك إسرائيل.

(الملوك الأول ١٥/ ١٨ - ١٩).

ولو كان لبيت الرب فى أورشليم ذرة من مهابة وقداسة، ما تم الاستيلاء على «ممتلكات ومخصصات» الرب، بل وإرسالها إلى ملك آرامى.

ودنّس يهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا أورشليم طوال ثمانى سنين جلس على كرسى الحكم فيها، وسار فى طريق ملوك إسرائيل الوثنى، وصاهر بنت آخاب ملك إسرائيل والذى رعى الوثنية فى المملكة الإسرائيلية الشمالية (الملوك الثانى ٨/ ١٦ - ١٨).

وخلال السنة الواحدة التى تملك فيها أخزيا بن يهورام على يهوذا، لم تكن لأورشليم أية قداسة لديه، وفعل كل الرجاسات فيها

(الملوك الثانى ٨/ ٣٥ - ٣٧).

ويهوياداع يجمع الجلادين والسعاة ويدخلهم بيت الرب ليضع خطة اغتيال لخصومه، ويصدر أوامره بقتل عثليا أم أخزيا

(الملوك الثانى ١١/ ٤ - ١٦).

ومع أن الملك يهوآش قد ملك فى أورشليم أربعين سنة، إلا أنه قد أبقى على المظاهر الوثنية فى المدينة: «إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات»

(الملوك الثانى ١٢/ ٣).

وسار على دربه ابنه أمصيا، الذى ملك أورشليم ٢٩ عامًا:

«إلا أن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات» (الملوك الثانى ١٤/ ٤)، أى أن الوثنية استمرت ضاربة بجذورها فى أورشليم.

أما يهوآش - ملك إسرائيل - فلم تكن فى نفسه ذرة تقديس لأورشليم، فقام بهدم سورها، واستولى على ممتلكات الرب فى بيته، ولا أعرف هنا كيف يفسر لنا أتباع إسرائيل المعاصرين هذه «المكانة المتدنية» لأورشليم فى نفوس حكامهم وملوكهم؟:

«وأما أمصيا ملك يهوذا بن يهوآش بن أخزيا فأمسكه يهوآش - ملك إسرائيل - فى بيت شمس وجاء إلى أورشليم وهدم سور أورشليم من باب أفرايم إلى باب الزاوية: أربع مئة ذراع، وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك والرهناء ورجع إلى السامرة» (الملوك الثانى ١٤/ ١٢ - ١٤).

والملك الشاب عزريا بن أمصيا الذى تملك على أورشليم أكثر من نصف قرن، قد فعل المستقيم فى عينى الرب: «لكن المرتفعات لم تنتزع، بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات»

(الملوك الثانى ١٥/ ٤).

ومعنى هذا، أن نصف قرن من الحكم، لم تستطع خلق قداسة لأورشليم فى قلب حاكمها وسكانها من الإسرائيليين.

وزاد آحاز بن يوثام - الذى حكم أورشليم ستة عشر عامًا - من تدنيس أورشليم حيث «لم يعمل المستقيم فى عينى الرب إلهه كداود أبيه، بل سار فى طريق ملوك إسرائيل حتى إنه عبر ابنه فى النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل، وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء»

(الملوك الثانى ١٦/ ٢ - ٤).

وآحاز بن يوثام الذى تملك ستة عشر عامًا على أورشليم، تحالف مع تغلت فلاسر - ملك أشور - ضد فقح بن رمليا - ملك إسرائيل - لصد العدوان على أورشليم، وهو سار فى طريق الأمم الوثنية، فعبر ابنه فى النار وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء فى أورشليم، بل أخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة فى بيت الرب وأرسلها إلى ملك آشور هدية، وإمعانًا فى الوثنية، أمر الملك آحاز أوريا الكاهن ببناء مذبح وثنى لملك آشور (الملوك الثانى ١٦/ ١ - ١٥).

وفيما يلى، نسوق قائمة بما فعله الإسرائيليون فى أورشليم، وما حولها: من رجاسات وتدنيس وشرك وكفر، لا يمكن أن يتفق و«التقديس» المزعوم للمدينة:

«وكان أن بنى إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذى أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون - ملك مصر - واتقوا آلهة أخرى، وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل

وملوك إسرائيل العربية أقاموهم، وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم مرتفعات فى جميع مدنهم من برج النواطير إلى المدينة المحصنة (أورشليم)، وأقاموا لأنفسهم أنصابًا وسوارى على كل تل عالٍ وتحت كل شجرة خضراء، وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب، وعبدوا الأصنام التى قال الرب لهم عنها: لا تعملوا هذا الأمر. . .» (الملوك الثانى ١٧/ ٧ - ١٢).

وهذه أعمال وجرائم ملك يهودى حدث عمره اثنا عشر عامًا، يتولى الملك فى أورشليم خمسة وخمسين عامًا، فماذا فعل؟

«كان منسى ابن اثنتى عشرة سنة حين ملك، وملك خمسًا وخمسين سنة فى أورشليم، واسم أمه حفصية، وعمل الشر فى عينى الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل، وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل أخاب - ملك إسرائيل - وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبنى مذابح فى بيت الذى قال الرب عنه فى أورشليم أضع اسمى، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب، وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاءل واستخدم جانًا وتوابع وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته، ووضع تمثال السارية التى عمل فى البيت الذى قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه: فى هذا البيت وفى أورشليم التى اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمى إلى الأبد» (الملوك الثانى ٢١/ ١ - ٧).

واستمر ابنه آمون على نفس النهج الدنس

(الملوك الثانى ٢١/ ١٩ - ٢٢).

أما يهوآحاز الذى لم يتملك على أورشليم سوى ثلاثة أشهر فقد دنس المدينة كذلك، وواصل ارتكاب الموبقات فى هذه المدينة أخو يهوآحاز الملك الياقيم طوال أحد عشر عامًا تملك فيها على أورشليم

(الملوك الثانى ٢٣/ ٣١ - ٣٦).

واستمر ملوك أورشليم فى سلوكياتهم الوثنية الدنسة تجاه أورشليم وتجاه بيت الرب فيها، فكان الملك يهوياقيم الذى حكم أورشليم إحدى عشرة سنة، واستمر فى غى آبائه وأجداده (أخبار الأيام الثانى ٣٦/ ٥).

ثم جاء صدقيا ليحكم أورشليم إحدى عشرة سنة أخرى:

«وعمل الشر فى عينى الرب إلهه ولم يتواضع أمام إرميا النبى من فم الرب، وتمرد أيضًا على الملك نبوخذنصر الذى حلفه بالله وصلب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل، حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم» (أخبار الأيام الثانى ٣٦/ ١٢ - ١٤).

تلك النصوص التى أوردتها فى هذا المقام هى صفحات خالدة، سجلتها أسفار العهد القديم، الكتاب المقدس عند اليهود ومسيحى العالم، تثبت لنا مكانة أورشليم فى نفوس الإسرائيليين: ملوكًا وأفرادًا بل وكهنة أيضًا، إذ يصور لنا نحميا فى سفره صفحة أخرى من فسوق كهنة أورشليم وحماة بيت الرب فيها، ومحاولات النبى نحميا لتطهير بيت الرب فى أورشليم مما لحقه من الرجاسات، وتقويم سلوك بنى شعبه،

واردة فى الإصحاح الثالث عشر والأخير من سفره.

وخلال ظلمات الوثنيـة الإسرائيلية والأرجاس والموبقـات التى ارتكبها اليـهود فى حق أورشليم، وحق بيـت الرب فيـها، كـانت هناك لحظات وفترات قـصيرة من عمر أورشليم، شـهدت فيها المدينة وبيت الرب فـيها محاولات للتطهر على أيدى بعض المصلحين والأنبياء.

فالملك حزقيا بن آحار الذى تملك على أورشليم تسعة وعشرين عامًا:

«عمل المستقيم فى عينى الرب حسب كل ما عمل داود أبوه، هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع الســوارى وسحق حية النحاس التى عملها مـوسى؛ لأن بنى إسـرائيل كانوا إلـى تلك الأيام يوقدون لـها ودعـوها نحشـتان، على الرب إله إسرائيل اتكـل، وبعده لم يكن مثله فى جـميع ملوك يهوذا ولا فى الذين كانوا قبله» (الملوك الثانى ١٨/ ٣ - ٥).

حقًـا، لم نجد فى ملوك أورشليم على مـر تاريخهـا من قدس المدينة وطهرها وقـدر حرمـتها، ولا حـتى داود وسليمـان على نحو مـا ذكرت نصوص الكتاب المقدس، ولكن تبقى «قداسة أورشليم» هنا مسألة فردية، بمعنى أنها تعكس «حالة تقوى وورع» خـاصة، ولا تعطى لنا انطباعًا عن مكانة المدينة عند الإسرائيليين، والعكس هو الصحيح، فالانطباع العام - على نحو ما أوردنا من نصوص - يقـول بوضوح: إن أورشليم لا قداسة لها فى النفوس، ولا مكانة لها فى اليهودية على الإطلاق.

ونذكر ضمن المواقف الإيجابية تجـاه أورشليم، محاولات الملك يوشيا الإصلاحيـة، التى شملت كافـة جوانب الشريعة، وبيت الرب، وتطـهير أورشليم:

«وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية، ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم فى حقول قدرون وحمل رمادها إلى بيت إيل، ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات فى مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم والذين يوقدون للبعل للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادى قدرون وأحرقها فى وادى قدرون ودقها إلى أن صارت غباراً وذرى الغبار على قبور عامة الشعب، وهدم بيوت المأبونين التى عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن بيوتًا للسارية، وجاء بجميع الكهنة من مدن يهوذا، ونجس المرتفعات حيث كان الكهنة يوقدون من جبع إلى بئر سبع، وهدم مرتفعات الأبواب التى عند مدخل باب يشوع رئيس المدينة التى عن اليسار فى باب المدينة، إلا أن كهنة المرتفعات لم يصعدوا إلى مذبح الرب فى أورشليم، بل أكلوا فطيراً بين إخوتهم، ونجس توفة التى فى وادى بنى هنوم لكى لا يعبر أحد ابنه أو ابنته فى النار لمولك، وأباد الخيل التى أعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب عند مخدع نثنملك الخصى الذى فى الأروقة ومركبات الشمس أحرقها بالنار، والمذابح التى على سطح علية آحاز التى عملها ملوك يهوذا والمذابح التى عملها منسى فى دارى بيت الرب هدمها الملك وركض من هناك وذرى غبارها فى وادى قدرون، والمرتفعات التى قبالة أورشليم التى عن يمين جبل الهلاك التى بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتورث رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة الموآبيين وللمكوم كراهة بنى عمون نجسها الملك، وكسر التماثيل وقطع السوارى وملأ مكانها من

عظام الناس، وكذلك المذبح الـذى فى بيت إيل فى المرتفعة التى عـملها يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يُخطئ فذانك المذبح والمرتفعة هدمهما وأحرق المرتفـعة وسحقـها حتى صـارت غباراً وأحرق السـارية، والتفت يوشيـا فرأى القبور التى هناك فى الجـبل فأرسل وأخذ العظام من القـبور وأحرقـها على المذبح ونجـسه حسب كـلام الرب الذى نادى به رجل الله الذى نادى بهذا الكلام، وقال: ما هذه الصـوة التى أرى، فقال له رجال المدينة: هى قـبر رجل الله الذى جـاء من يهوذا ونادى بهـذه الأمور التى عـملت على مذبح بيت إيـل، فقـال: دعوه، لا يحـركن أحد عظامـه، فتـركوا عظامه وعظام النـبى الذى جاء من السامـرة، وكذا جمـيع بيوت المرتفعات التى فى مدن السامرة التى عـملها ملوك إسرائيل للإغاظة أزالها يوشيا وعمـل بها حسب جميع الأعمـال التى عملها فى بيت إيل، وذبح جميع كهنة المرتفعات التى هناك على المذابح وأحرق عظام الناس عليها ثم رجع إلى أورشليم» (الملوك الثانى ٢٣/ ٤ - ٢٠).

لقد كانت حركة يوشيا الإصـلاحية هى محاولة لإعادة خلق الماضى، إذ قام أولاً بدعوة جميع شيوخ يهوذا (الملوك الثانى ٢٣/ ١) لتجديد العهد معهم فى بيت الرب، وأقسم الحاضرون على نبذ الآلهة والأوثان والالتزام بعبادة إله إسرائيل وحده (٢٣/ ٢ - ٣)، ثم اتجه يوشيا إلى تطهير العقائد والشعائر (٢٣/ ٤ - ٢٤)، حيث كانت الشعـائر والطقوس الوثنية منتشرة فى كل مكان من أورشليم، ولهـذا رأينا فى النص السـابق، كيف جـمع يوشيا كل المعدات الطقسية الوثنية المتعلقة بعبادة بعل والسارية (عشتورت) وكل أجناد السماء (الشـمس والقمر والمنازل) إلى خارج المدينة وأحـرقها

فى وادى قدرون، كما أخرج الأصنام (المصاطب) من بيت الرب، وهدم بيوت الداعرات المقدسات المكرسة للسارية فى الساحة(١).

لقد كانت إصلاحات يوشيا بمثابة حملة من أجل صهيون، إذ كان يحاول تحقيق المثل الأعلى «التثنوى» بأن يجعل أورشليم البيت الأوحد للرب يهوه فى شتى أرجاء إسرائيل ويهوذا، ومن ثم رأينا أنه كان من الضرورى تدمير وتدنيس جميع الأماكن المقدسة الأخرى، بحيث تظل القدسية الكاملة التامة لبيت الرب وحده.

لقد كان إعلاء شأن أورشليم من قبل يوشيا هو السبب وراء تلك الحملة العنيفة من التدمير والهلاك، ومع أن الدعوة إلى التراحم والرحمة - على نحو ما دعا الأنبياء - كانت من الصفات الأساسية المصاحبة للعقيدة آنذاك، فإن يوشيا قد رأى بإصلاحاته، أن شرف أورشليم وقدسيتها، أهم من أى اعتبارات أخرى(٢).

* * *

(١) مزيد حول هذه الإصلاحات فى: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٣٨، ١٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٤١.

الفصل الخامس

اللاهوت الأورشليمى

فى النفى البابلى - وبعده - بـدأت ملامح لاهوت (فكر دينى) يجعل من أورشليم نقطة ارتكازه ومحـوره، ومع إسقاط ملك اليهـود نهائيًا من على أرض أورشليم فى القرن السادس قبل الميلاد، بدأت أورشليم القدس تأخذ شكلاً صـوفيًا عند اليـهود، وتحولت إلى رمـز للوطن الضائع، فى الوقت الذى تحرك فيـه التعصب الطبقى لليهـود المنفيين إلى بابل، والذى كان يشـعرهم بأنهم مـتميـزون وحاكـمون فى فلسطين، لقـد تحول هذا التعصب الطبـقى إلى تعصب دينى وعنصرى[1]، لم يكن هؤلاء المنفيون فى بابل يحيـون حياة الأسـر والمذلة، بل تمتعوا بملذات الحـياة فى بابل، ويأمر الرب إله إسرائيل:

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبى الذى سـبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيـوتًا واسكنوا واغرسـوا جنات وكلوا ثمرها، خـذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وخذوا لـبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجـال فيلدن بنين وبنات وأكـثروا هناك ولا تقلوا واطلبـوا سلام المدينة التـى سبيـتكم إليـها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام» (إرميا ٢٩/ ٤ - ٧).

هكذا تمتع المنفـيون بالحيـاة: بناء وغرس وتزاوج وتنـاسل وصلاة إلى الرب، وربما كانت مشكلتـهم الوحيدة هى استحالة الإعـلان عن عبادتهم للرب «يهوه» حسب تقاليدهـم، أى: فى أورشليم.

ومن هنا كان تركيز المنفيـين على حب أورشليم، وعلى جميع الشعائر الدينيـة التى يمكن أن تجـعلهم مـتمـيـزين على غيـرهم، وأن تفـصلهم

(١) انظر: رجاء جارودى، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥٣.

وتفردهم عن ذلك المحيط الجديد.

ومع أن الهيكل السليمانى الأورشليمى كان يزخر بصور «وثنية» فى ظاهرها، فقد أصبح من المؤسسات التى تتمتع بأكبر إعزاز وتكريم فى إسرائيل، وكان بعض الأنبياء والمصلحين يبدون اعتراضهم عليه ويحثون الناس على العودة إلى «دين الخروج من مصر»، زاعمين أنه أنقى وأصفى، لكن مع التدمير البابلى لهذا الهيكل، شعر معظم المنفيين بأن عالمهم قد أصابه الفناء[1]، ومن هنا تحول الفكر اليهودى تجاه الهيكل تحولاً ملحوظًا فى معناه ومبناه.

إن رؤيا حزقيال - بعد تدمير المدينة بنحو أربعة أعوام - والتى رأى فيها مدينة تقع على جبل شاهق واسمها «يهوه شمة» أى: «يهوه هناك» لتعكس المكانة التى أصبحت تحتلها أورشليم فى قلوب المنفيين، إذ هى جنة أرضية، ومكان السلم والخصب، وعلى نحو ما ينبع النهر فى جنة عدن وتتدفق أنهاره لتنشر الخصب والنماء فى سائر أرجاء الدنيا، هكذا تفجرت الينابيع فى رؤيا حزقيال من تحت معبد المدينة، لتحمل معها الحياة للأحياء، والشفاء للمرضى، فازدهر شجر لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره... ويكون ثمره للأكل وورقه للشفاء» (حزقيال ٤٧/ ١١).

هكذا أسهمت أحاسيس الاغتراب فى المنفى، وآلام الانبتات والنزوح، فى التحول الفكرى إلى الأساطير القديمة، ومن ثم تصوروا العودة إلى المكان الذى عليهم أن يقيموا فيه، وابتكر حزقيال فى رؤياه هيكلاً فى وسط المدينة فى إطار خريطة مقدسة جديدة. هذا الهيكل المبتكر يطابق هيكل سليمان الذى أصبح حطامًا (حزقيال ٤١/ ٣ - ٤)، لكنه يختلف

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ٩٩.

عن الهيكل السليمانى فى أمرين مهمين: فلم يعد قصر الملك مجاوراً للهيكل، وأصبحت مبانى محاطة بفناءين حولهما الأسوار[١].

لقد كان وصف حزقيال لأرض الميعاد - فى رؤياه - يختلف تمامًا عن جغرافية هذه الأرض الطبيعية، فمدينة «يهوه شمة» تختلف عن أورشليم من حيث إنها «مركز الأرض» نفسه، كما أنها كانت أكبر من مملكتى إسرائيل ويهوذا معًا.

إن رؤيا حزقيال «بالوطن الموعود» لم تكن فى حقيقتها وصفًا حقيقيًا لوطنه، بل هى صورة روحية أكثر منها واقعية، فالهيكل أو المعبد هو نواة حقيقة العالم، يليه المدينة المحيطة به، ثم منطقة خاصة يشغلها القائمون على الكهانة والقداسة وهم: الملك والكهنة واللاويون.

إن التفاصيل الدقيقة التى ترسمها لنا رؤيا حزقيال للمعبد والمحراب وطقوسه وكهنته قد تم تصورها فى وقت لم يكن ثمة أمل فى تنفيذها، حيث كان المعبد قد دمر تمامًا، ومع ذلك فقد أسهمت - على ما يبدو - «خصوبة بابل الطبيعية» فى «خصوبة الخيال اليهودى».

إن تلك النصوص العبرية الحافلة بالتفاصيل الدقيقة عن هذا المكان المقدس، وعلى نحو ما نجد فى سفر حزقيال، لم تكن معبرة عن أوضاع قائمة بالفعل وقت كتابة هذه النصوص، ولا حتى قبلها، لقد أصبحت أورشليم - وفق هذا الفكر الناشئ فى المنفى «قيمة» داخلية فى نفوس المنفيين، وأصبحت صورة للخلاص الذى يمكن تحقيقه.

إن «الأحلام الحزقيالية» - فى رأيى - لم تكن أحلامًا قابلة للتحقيق،

(١) انظر تفاصيل هيكل حزقيال فى رؤياه فى الإصحاح الحادى والأربعين من سفر حزقيال.

بل لم يطلب حزقيال نفسه تحقيق هذه الأحلام، ولم يفكر المنفيون فى التطبيق المادى لها، ودليلنا على ذلك أنه عندما أتيحت الفرصة للمنفيين كى يعودوا إلى «أرض الأحلام» فضّل كثير من يهود المنفى البقاء فى بابل لأمر بسيط وهو أنهم كانوا يدركون أن الوجود الجسمانى المادى فى أورشليم ليس ضروريًا وفق قيمهم الجديدة تجاه صهيون وأورشليم.

لقد كان حزقيال يتطلع إلى «يوتوبيا» متمثلة فى تحول روحانى يتم بموجبه منح يهوه لشعبه قلبًا جديدًا وروحًا جديدة، ومن ثم لم يكن «الخلاص» ليتمثل فى بناء هيكل جديد وحسب، وإنما فى بعث «شخصية يهودية» جديدة تمامًا.

لكن يبدو أن أحلام حزقيال ورؤاه الطوباوية المثالية لم تكن بينها وبين الواقع أية وشائج، إذ كانت قلوب العائدين من المنفى قد استبدلت ما يسرى فيها من دماء، بعنصرية بغيضة جعلتهم ينظرون إلى الأمم الأخرى كأعداء لهم، بل إنهم كانوا يرون فى «عام هآرتس» أى اليهود الباقين فى أورشليم ما يرونه فى الأغراب الجوييم، وإن كان - بمقتضى شرعة القداسة - يسمح لهم بدخول أورشليم، إن العائدين من النفى لم يبدوا أى ترحيب بالعيش مع إخوانهم «عام هآرتس» ومن هنا لم تحقق أورشليم السلم المنتظر، بل تحولت إلى موضع خلافى فى الأرض المقدسة[1].

هكذا ضاعت أحلام حزقيال، وشطحات إشعياء، عاد المنفيون ليجدوا هيكلاً ماديًا جديدًا، لكنه فقد شيئًا رئيسًا لم يعثر عليه حتى الآن، ألا وهو تابوت العهد، الذى انقطعت أخباره منذ النفى وحتى يومنا هذا.

بل لقد أبدى الرب سخريته من تحديد محل إقامته فى هيكل محدود

---

(١) انظر: كارين أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص: ١٧٠.

الأبعاد: «هكذا قال الرب: السماوات كرسىٌّ، والأرض موطئ قدمى، أين البيت الذى تبنون لى وأين مكان راحتى، وكل هذه صنعتها يدى...» (إشعياء ٦٦/ ١).

إن النصوص العبرية التى تصف ما بعد النفى لا تشير إلى عودة «يهوه» إلى صهيون على النحو الذى تنبأ به إشعياء، ومع هذا فقد استمر الناس يحلمون بأورشليم الجديدة، الآمال القديمة لم تمت، وأورشليم أصبحت رمزًا للخلاص النهائى الذى لم يتحقق حتى الآن:

«هكذا قال الرب... هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضًا جديدة، فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال، بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد فى ما أنا خالق لأنى هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحًا، فابتهج بأورشليم، وأفرح بشعبى ولا يسمع فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ، لا يكون بعد هناك طفل أيام ولا شيخ لم يكمل أيامه؛ لأن الصبى يموت ابن مئة سنة، والخاطئ يُلعن ابن مئة سنة، ويبنون بيوتًا ويسكنون فيها، ويغرسون كرومًا ويأكلون أثمارها لا يبنون وآخر يسكن، ولا يغرسون وآخر يأكل... ويكون أنى قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع، الذئب والحمل يرعيان معًا، والأسد يأكل التبن كالبقر، أما الحية فالتراب طعامها، لا يؤذون ولا يهلكون فى كل جبل قدسى، قال الرب» (إشعياء ٦٥/ ١٧ - ٢٥).

ولعلنا نتساءل بعد قراءة النص السابق: هل تحققت نبوءة إشعياء وقول الرب؟!

إن أورشليم القدس لم تعرف تلك الصورة على الإطلاق فى جميع الفترات التى عاشها اليهود فيها، بل على العكس، فإنها فى ظل الوجود

اليهودى كانت - وما زالت - ملآنة بالصراخ والبكاء، ولا يأمن فيها المرء على حياته، فما بالنا بالذئب والحمل!!

إن الحقبة التاريخية التالية لإشعياء ونبوءته حول أورشليم لتفيد بوقوع عكس ما جاء فى هذه النبوءة، فالوثنية القديمة ما زالت تعشش فى أوكارها وأسوارها، والمشاكل الاجتماعية متأججة، فالقادمون من المنفى يسعون إلى استبعاد الآخرين من المدينة وقصرها عليهم فقط مع أن الرب يقول: «بيتى بيت الصلاة، يدعى لكل الشعوب» (إشعياء ٧/٥٦).

ومنذ رؤى حزقيال، ونبوءات إشعياء، وحتى وقتنا هذا لم يسجل لنا التاريخ اليهودى - المسجل فى كتابهم المقدس، وسائر كتبهم - تحقيق ما جاء فى هذه الرؤى والنبوءات، وأغلب الظن أنها لا تعكس واقعًا دنيويًا، بل ربما كانت صورة من صور الملكوت الربانى فى الآخرة.

لقد أسهمت كل هذه الأحلام والرؤى فى خلق «لاهوت» أورشليمى تضخم مع مرور الزمن، وازداد تضخمه مع تداخل العناصر السياسية والمصالح الدنيوية فى العصر الحديث.

وإذا كنا فى الصفحات السابقة قد أوضحنا الأرضية التى عليها نشأ اللاهوت الأورشليمى، فإننا فى الصفحات التالية نعرض بعض ملامح هذا اللاهوت، إلا أننا نود أن نشير بداية إلى قضية مهمة تنسف جذور هذا اللاهوت بأكمله، وتتمثل هذه القضية فى الفهم الخاطئ لعلاقة الرب بأورشليم، والتى سبق وأن أسهبنا الحديث حولها فى فصل سابق.

فالعلاقة «السكنية» بين «يهوه» والهيكل فى أورشليم تحددها بنود واضحة فى «عقد السكن» المزعوم.

جاء فى سفر الملوك الأول ٩/١ - ٩ ما يلى:

«وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل، أن الرب تراءى لسليمان ثانية، كما تراءى له فى جبعون وقال له الرب: قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى. قدست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة، وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى، فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلَّمت داود أباك قائلاً: لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل، إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت، فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر».

النص السابق يوضح لنا عقد الاتفاق المبرم بين «مالك العقار» و«ساكنه» والساكن هنا هو الطرف الأقوى فى المسألة، إذ نراه يملى شرطين أساسين، حيث لم تكن ثمة مشكلة سكنية بعد - على النحو التالى:

أولاً - على مالك العقار (بانى الهيكل = سليمان) أن يسلك مسلك الأب داود بسلامة قلب واستقامة.

ثانيًا - أن يعمل «مالك العقار» حسب كل وصايا الرب (الساكن) ويحفظ فرائضه وأحكامه.

كما اشترط الساكن شرطين أيضًا يتم بموجبهما فسخ العقد، وهما:

أولاً - تخلى صاحب العقار وورثته عن طريق الرب وعدم حفظ وصاياه.

ثانيًا - عبادة المالك وورثته للآلهة الأخرى والسجود لها.

وسفر الملوك كله يضم «شهادات موثقة» و«محاضر» مسجلة تسجيلاً أمينًا لإخلال المالك وورثته بشرطىّ سكن الرب وإقامته فى البيت، ومن ثم فإن الرب لم يسكن على الإطلاق فى هذا المكان.

ونتيجة عدم الالتزام اليهودى والإخلال ببنود العقد السابقة، فقد أعلن الرب بطلان العقد (الملوك الأول ١١/١١ - ١٣)، بل وقام بتوقيع العقوبات الملائمة على بناة البيت وأصحابه.

ويعطى إله إسرائيل الفرصة مرة أخرى للعودة والسكنى فى بيته الأورشليمى، والعودة - كذلك - مشروطة:

«إن خنتم فإنى أفرقكم فى الشعوب، وإن رجعتم إلىّ وحفظتم وصاياى وعملتموها، إن كان المنفيون منكم فى أقصاء السماوات، فمن هناك أجمعهم وآتى بهم إلى المكان الذى اخترت لإسكان اسمى فيه»

(نحميا ١/٨ - ٩).

وتم بناء البيت المدمر على أيدى البابليين، وتجدد العقد مع الرب للسكنى فى بيته بأورشليم، واجتمع الشعب «ودخلوا فى قسم وحلف أن يسيروا فى شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى عبد الله وأن يحفظوا

ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه»

(نحميا ١٠/ ٢٩ - ٣٠).

لكن «محاضر» العهد القديم تثبت إخلال بنى إسرائيل بشروط العقد، ومن ثم، فإن الرب لم يعد مقيمًا فى البيت المزعوم.

هكذا إذن تبدو الحقيقة المؤلمة، أساطير تحاك حول بيت مهجور. الرب - وفق حكمه وشروطه - لا يسكن فيه، حتى تابوته المقدس، لم يعد له ذكر، بل لم يعد له أثر لا من الناحية المادية الملموسة، ولا من الناحية المعنوية المتمثلة فى تطبيق ما فيه، ومع هذا يتضخم اللاهوت حول أورشليم وبيت الرب، ليصبح هذا التضخم صعب الاستئصال، إذ تشعب فى الفكر اليهودى تشعبًا سرطانيًا، ولم تعد هناك إمكانية تدخل جراحى يعيد الأمور إلى نصابها.

نعود مرة أخرى إلى اللاهوت الأورشليمى الذى نلج فيه من بوابة رئيسة تتمثل فى مركزية وتمحور أورشليم فى الحياة اليهودية.

جاء فى المزمور ١٢٥/ ١ - ٢ ما يلى:

«المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذى لا يتزعزع، بل يسكن إلى الدهر. أورشليم الجبال حولها، والرب حول شعبه من الآن وإلى الدهر».

دوائر متداخلة فى بعضها، جبل صهيون وأورشليم والرب والشعب، لكن هناك دائرة أم ترتبط بها سائر الدوائر، ألا وهى أورشليم.

من هذا المنطلق، كانت أورشليم محور الفكر الدينى اليهودى.

فهى تحدد موقف الرب من الشعب ومن الأغيار.

وهى مقدسة فى ذاتها، وجالبة القداسة لمن يسكن فيها.

وهى مصدر الشريعة.

ومركز العبادة.

و... و...

ففيما يتعلق بارتباط الرب بهـا، وخضوع الأغيار لها وانتقام الرب من أعدائها نجد هذا النص العبرى المقدس الوارد فى سفر إشعياء (٤٩/ ٢٤ - ٢٥) وسبق أن استشهدت به من قبل.

وفيما يتعلق بقداستها نجد قول الرب لأورشليم:

«استيقظى استيقظى، البسى ثياب عزك يا صهيون. البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة؛ **لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس...**» (إشعياء ٥٢/ ١).

وأما تقديس ساكنها فنجده فى النص التالى:

«انظر: صهيون مدينة أعيادنا. عيناك تريان أورشليم مسكنًا مطمئنًا... لا يقول ساكن أنا مرضت. **الشعب الساكن فيها مغفور الإثم**» (إشعياء ٣٣/ ٢٠ - ٢٤).

هكذا يتطهر ويتقدس سكان أورشليم، بل ويرفع عنهم سنن الله فى سائر كونه وخلقه، فالساكن أورشليم لا يمرض، كما أنه قد حظى بتأشيرة دخول الجنة وصك الغفران.

إن الآثام لا تغفرها إلا العبادات كالصلاة والصوم والدعاء والاستغفار، لكن سكنى أورشليم تستوجب مغفرة الرب لها، ومن ثم فإن السكنى فى أورشليم هى عبادة فى حد ذاتها.

ويصرح الرب بقداسة سكان أورشليم، وما يحل بهم من نعيم لا يحظى به إلا أهل الجنان. يقول إله إسرائيل:

«فى ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاءً ومجدًا، وثمر الأرض فخرًا وزينة للناجين من إسرائيل، ويكون أن الذى يبقى فى صهيون، **والذى يترك فى أورشليم يسمى قدوسًا**، كل من كُتب للحياة فى أورشليم، إذا غسل السيد قذر بنات صهيون، ونقى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وبروح الإحراق، يخلق الرب على كل مكان من جبل صهيون وعلى محفلها سحابة نهارًا ودخانًا ولمعان نار ملتهبة ليلاً؛ لأن على كل مجد غطاء، وتكون مظلة للفىء نهارًا من الحر، وملجأ ولمخبأ من السيل ومن المطر» (إشعياء ٤/ ٢ - ٦).

وعلى النحو السابق نجد القداسة قد شملت المكان (غسل السيد قذر بنات صهيون، ونقى دم أورشليم)، كما شملت من يعيش فى هذا المكان (والذى يترك فى أورشليم يسمى قدوسًا).

ليس هذا فحسب، فإن أورشليم هى مصدر الشريعة اليهودية التى تضىء للبشرية طريقها، وتهدى سائر الأمم:

«ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتًا فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه كل الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون: هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيته، إلى بيت إله يعقوب، فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله؛ **لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب**» (أشعياء ٢/ ٢ - ٣).

ويؤكد النبى ميخا على انبعاث الشريعة من أورشليم، فيكرر عبارة

إشعياء السابقة قائلاً: «من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب» (ميخا ٤/ ٢).

وتتجسد قمة «العنصرة الفكرية» الأورشليمية وتبلغ مداها عندما يصرح لنا المزمور ١٣٧ بعدم جواز الابتهال إلى الرب - وهو نوع من أنواع العبادة - خارج أورشليم:

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضًا عندما تذكرن صهيون، على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا؛ لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحًا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون، كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة؟!» (١ - ٤).

ويمثل خضوع الأمم الأخرى لسلطان أورشليم نقطة جوهرية فى اللاهوت الأورشليمى، وانعكس ذلك المفهوم فيما يلى:

«ابتهجى جدًا يا ابنة صهيون، اهتفى يا بنت أورشليم، هوذا ملكك يأتى إليك، هو عادل ومنصور، وديع وراكب على حمار - وعلى جحش ابن أتان. . . يتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصى الأرض» (زكريا ٩/ ٩ - ١٠).

هكذا يتسلط ملك أورشليم ويمتد سلطانه إلى أقاصى الأرض، فالمسألة إذن لا تتوقف على أرض الميعاد وإعادة بناء هيكل؛ لأن كل من يؤمن بالنص السابق عليه أن يسعى إلى تحقيق فحواه، وأن يسيطر ملك أورشليم على أقاصى الأرض.

وملك أورشليم هنا ليس شخصًا بعينه، وإنما هو رمز للسلطان الإسرائيلى الذى يتخذ من أورشليم مركزًا له.

فبعد أن تم اختزال مصادر التشريع الربانى فى مكان محدد، كان لابد أن تكتمل السلطة والسيطرة بجانبها الدنيوى، ومن ثم كان لابد من إعلان كلمة الرب والتبشير بالملك الأورشليمى القاهر للعالم بأسـره ويتأكد هذا المفهوم، مفهوم السيطرة الأورشليمية اليهودية على العالم فى المزمور ٦٨، حيث جاء فيه:

«من هيكلك فوق أورشليم لك تقدم ملوك هدايا» (٢٩).

وتنكير لفظ ملوك فى العبارة السابقـة يفهم منه خضوع ملوك من شتى أصقاع الأرض لإله أورشليم وتقديمهم للهدايا فى هيكل الرب.

وتأتى تفاصيل خضوع العالم غـير اليهودى لأورشليم - أى لليهود - فى الإصحاح الستين من سفـر إشعياء، ويجدر بنا فى هذا المقام أن نورده كله، حتى نقف على أبعاد هذا «المفهوم القهرى» للأمم والشعوب.

«قومى استنيرى لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك؛ لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى، **فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك.**

ارفعى عينيك حواليك وانظرى، قد اجـتمعوا كلهم جاءوا إليك، يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى، حـينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتى إليك غنى الأمم، تغطيك كثـرة الجمال بكران مديان وعـيفة كلها تـأتى من شبا، تحمل ذهبًا ولبانًا وتبـشر بـتسـابيح الرب، كل غنم قـيـدار تجـمع إليك، كبـاش نبـايوت تخدمك، تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى.

من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها، إن الجزائر تنتظرنى

وسفن ترشيش فى الأول لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل؛ لأنه قد مجدك.

وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك؛ لأنى بغضبى ضربتك وبرضوانى رحمتك، وتنفتح أبوابك دائمًا، نهارًا وليلاً لا تغلق، ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم؛ لأن الأمة والمملكة التى لا تخدمك تبيد وخرابًا تخرب الأمم، مجد لبنان إليك يأتى السرو والسنديان والشربين معًا لزينة مكان مقدسى وأمجد موضع رجلى.

وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس إسرائيل، عوضًا عن كونك مهجورة ومبغضة بلا عابر بك أجعلك فخرًا أبديًا، فرح دور فدور، وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدى ملوك وتعرفين أنى أنا الرب مخلصك ووليك عزيز يعقوب، عوضًا عن النحاس آتى بالذهب وعوضًا عن الحديد آتى بالفضة وعوضًا عن الخشب بالنحاس وعوضًا عن الحجارة بالحديد، واجعل وكلاءك سلامًا وولاتك برًا. لا يسمع بعد ظلم فى أرضك ولا خراب أو سحق فى تخومك، بل تسمين أسوارك خلاصًا وأبوابك تسبيحًا، لا تكون لك بعد الشمس نورًا فى النهار ولا القمر ينير لك مضيئًا، بل الرب يكون لك نورًا أبديًا وإلهك زينتك، لا تغيب بعد شمسك وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نورًا أبديًا وتكمل أيام نوحك، وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض غُصن غرسى عمل يدى لأتمجد، الصغير يصير ألفًا والحقير أمة قوية، أنا الرب فى وقته أُسرِعُ به» (إشعياء ٦٠).

ومن الإصحاح السابق نستخلص ما يلى:

١ - ستكون أورشليم - وبالطبع سكانها اليهود - مصدر هداية للأمم: شعوبًا وملوكًا (٣).

٢ - سيطرة أورشليم - واليهود - على مقدرات الأمم وثرواتها (٥).

٣ - اتخاذ أمم العالم أورشليم قبلة لهم، تهفو إليها نفوسهم، ويتجهون إليها بكل ما لهم (٩).

٤ - الويل والهلاك لكل من لم يخضع لسلطان أورشليم (١١).

٥ - استنزاف أورشليم لموارد الأمم والشعوب الأخرى (١٦).

٦ - الشعب اليهودى الأورشليمى قد حصل على براءة من الرب، وتمت مجازاته بميراث الأرض.

هذه النقاط المستقاة من نص إشعياء تشكل بؤرة الشعور فى العقل الإسرائيلى، نعم كثير مما ورد فى النص السابق قد يتفق وبعض مراحل التاريخ الإنسانى، لكن الشرط الأساس، والأول فى القائمة هو أن تصبح أورشليم مصدرًا لهداية الأمم: شعوبًا وملوكًا لم يتحقق حتى الآن، وأظنه لن يتحقق فى ظل وجود من فيها.

وثمة نقطة ينبغى أن نشير إليها ونؤكد عليها فى هذا المقام وهى أن الحديث عن أورشليم لا يعنى الحديث عن مدينة ذات شوارع ومبانٍ، وإنما المعنى هنا من أورشليم هو اليهود، وخطابات الرب وأحاديثه إليها إنما هى موجهة لمن فيها من البشر لا إلى محتوياتها الصماء.

وتبقى أمامنا إحدى القضايا الجوهرية فى اللاهوت الأورشليمى والتى تتجسد فى عبارة وردت فى سفر الملوك الثانى ١٩/ ٣١ ونصها:

«لأنه من أورشليم تخرج البقية، والناجون من جبل صهيون».

ويعاود إشعياء تذكيرنا بالقضية ذاتها فيقول على لسان الرب:

«لأنه من أورشليم تخرج بقية، وناجون من جبل صهيون» (٣٧/ ٣٢).

فما هى هذه البقية؟! ومن هم أولئك الناجون؟!

فى محاولة للتوفيق بين نصوص العهد القديم القاضية بهلاك الرب «يهوه» لشعبه المدلل إسرائيل نتيجة انحرافاتهم المتعددة الأبعاد من جانب، وتلك النصوص المبشرة بالخلاص وإعادة الرب لمجد هذا الشعب، حيث نشأت بالفعل معضلة يحتار العقل البشرى فى فهمها: هلاك حتمى، وخلاص حتمى، تفتق العقل الإسرائيلى المسطر للعهد القديم عن حل جهنمى لا يختلف عن حلول إسرائيل المقترحة لعلاج مشاكل وقضايا العصر الحديث، وقد تمثل هذا الحل فى نظرية البقية.

لقد نشأت هذه النظرية فيما قبل النفى البابلى نتيجة شيوع روح بين اليهود ألقت باللوم عليهم نتيجة خيانتهم للرب والسير فى طريق الوثنية وعصيان أوامر «يهوه»، وكان مفادها على النحو التالى:

مهما تحول اليهود عن يهوديتهم، ومهما عصوا أوامر ربهم، ومهما خالفوا طقوس وعادات الدولة الداودية، فإن ثمة بقية من هذا الشعب الضال لن تنحرف ولن تنجرف فى هذا التيار الوثنى، بل ستبقى هذه البقية على «خيريتها» وإخلاصها للرب[1].

ولهذه النظرية هدفان رئيسان: أولهما - التمكين من الإبقاء على

(١) إسماعيل راجى الفاروقى، أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨، ص: ٦٣، ٦٤.

الشعب اليهودى كعنصر متفرد، وثانيهما - إزالة التناقض الذى أشرت إليه آنفًا بين وجوب الهلاك، وضرورة الخلاص والنجاة.

فوجود «بقية صالحة» لا يـوجب «كلية الهلاك للشعب»، كما أنه ليس بالضرورة أن يكون الخلاص للشعب بأسره.

وهكذا يمكننا أن نستشف «الأبعاد العنصـرية» لهذه النظرية، فاليهودى الصالح هو اليهودى العنصرى الذى حافظ على نقاء عقيدته فلم ينحرف، وحافظ على عنصره فلم يندمج.

فوفقًا لهذه النظرية توفر العنصرية اليهودية الخلاص لمن تريد، وتوجب الهـلاك على من تريد، كمـا أنه طالما أن الهلاك ليس مطلـقًا، فبإمكان اليهودى التملص من القيود الأخلاقية وقتما يشاء، وعن طريق أخلاقه هو يخلق العنصرية، وذلك بعـزو أعمالهـا وخصائصهـا إلى البقية الصـالحة المزعومة.

ولإيضاح نظرية البـقية العنصـرية وارتباطها بأورشليم القـدس، نسوق بعض نصوصها:

يقول النبى إشعياء عن أورشليم وأرجاسها:

«ويل للأمة الخاطئـة، الشعب الثقيل الإثم، نسـل فاعلى الشر، أولاد المفسدين، تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء، علام تضربون بـعد، تزدادون زيغانًا، كل الـرأس مريض وكل القلب سـقيم، ومن أسـفل القدم إلى الرأس ليس فـيه صـحة، بل جـرح وإحبـاط... بلادكم خربة، مدنكم محرقـة بالنار، أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهى خربة...» (١/ ٤ - ٧).

ويتكرر الويل والهلاك لأورشليم وسكانها فى مواضع كثيرة من سفر إشعياء[1]، ولعلنا هنا فى حاجة لأن نسوق دليلاً آخر على الهلاك المنتظر لشعب الله وأورشليم، تأكيداً للحكم الربانى الحتمى الذى يمثل عنصراً أساسًا فى هذه النظرية العنصرية التى نتحدث عنها فى هذا المقام.

يقول إشعياء:

«ويل لأريئيل[2] قرية نزل عليها داود، زيدوا سنة على سنة، لتدر الأعياد وأنا أضايق أريئيل فيكون نوح وحزن وتكون كأريئيل، وأحيط بك كالدائرة، وأضايق عليك بحصن وأقيم عليك متارس، فتتضعين وتتكلمين من الأرض، وينخفض قولك من التراب ويكون صوتك كخيال من الأرض ويشقشق المارة، ويكون ذلك فى لحظة بغتة، من قبل رب الجنود تفتقد برعد وزلزلة وصوت عظيم وعاصف ولهيب نار آكلة» (٢٩/١ - ٦).

وتتوالى نبوءات إشعياء على أورشليم وشعبها وكلها تنذر بالهلاك (١٧/٧ - ٢٤، ٢٢/٧ - ١٤)، لكنه مع ذلك كله لا يغفل التلميح بشق النظرية الآخر، ألا وهو البقية الصالحة المزعومة.

فبعد الفقرات المنذرة بالهلاك فى مطلع سفره - والتى سقتها فى بداية هذه النصوص - نراه يتنبه إلى الجانب الآخر فيقول:

«فبقيت ابنة صهيون كمظلة فى كرم، كخيمة فى مقثأة، كمدينة محاصرة، لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة، لصرنا مثل سدوم

---

(١) انظر على سبيل المثال: ٥/٨؛ ١١، ١٨؛ ٣٠/١ - ١١.

(٢) أريئيل اسم يطلق على المكان المقدس داخل الهيكل حيث يسكن الإله، وأريئيل القرية هى أورشليم، حيث ا تخذها الرب سكنًا له.

وشابهنا عمورة» (١/٨ - ٩).

فهناك بقـية ناجـية من الهلاك الحـتمى القدرى اليـهوى، منهـا يخرج المخلص الذى يرسم إشـعـياء لأعـمـاله صورة ورديـة، ترتبط بأورشليم ارتباطًا وثيقًا (٣٢/١ - ٢، ٣١/٧ - ٨، ٩/٦ - ٧، ٣٥/١ - ١٠).

ويحدد لنا ملامح هذه البقية فيقول:

«ويكون فى ذلك اليوم أن بقيـة إسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعـودون يتوكلون أيضًـا على ضاربـهم، بل يتوكلون على الرب قـدوس إسرائيل بالحق، ترجع البقية، بقـية يعقوب إلى الله القدير؛ لأنه وإن كان شعبك يا إسرائيل كرمل البحر ترجع بقية منه» (١٠/ ٢٠ - ٢٢).

وهكذا لا يباد شعب الرب ولا ينقرض بفضل تلك البقية الصالحة التى يرتبط وجودها بوجـود أورشليم، فعدم وجود أورشليم يعنـى عدم وجود البـقيـة الناجيـة المشار إليـها، وهذا فـى حد ذاته يوضح لنا تضـخم هذا اللاهوت الأورشليمى الذى يشيـر إلى حقيقة رسخت فى العـقل اليهودى منذ فترة النفى، حيث بات بقاء أورشلـيم يعنى بقاء الشعب اليهودى، إذ إنه «من أورشليم تخـرج بقية، والناجـون من جبل صهـيون» (ملوك ثان ١٩/ ٣١)، وهو مـا عاد إشـعـيـاء ليؤكـده بنفس الكلمـات فى نبـوءاته (٣٧/ ٣٢).

إن جوهر هذا اللاهوت المصطنع، إنما اعتمد على قضية حل التعارض الوارد فى النصـوص المقدسة بالدرجـة الأولى؛ لأن هذا التعـارض سابق للنظرية التى عرضناهـا، ومن ثم فإن نظرية البقيـة الأورشليمية الصـالحة الناجية هى نظرية مصطنعة، زادت من تضخيم مكانة أورشليم فى النفس

اليهـودية فى مرحلة مـتأخرة من تاريخ المـدينة عند الإسرائيليـين، لكنها تمكنت بحق من العقل اليـهودى، والوجدان اليهودى، وحـديثًا من الفكر الصهيونى الذى يريد حل مشاكلـه الفكرية - والاقتصادية - على حساب تاريخ أورشليم القدس.

والحديـث عن لاهوت أورشليم القدس يطول، بطول نـصوص سـفر إشعياء على وجـه الخصوص، وفيما ذكرناه كفـاية لتوضيح المعالم، ولمن أراد الاستزادة فعليه باستقراء النصوص كلـها، فهى كفيلة بتسطير سفر لا يقل فى حجمه عن سفر إشعياء ذاته.

* * *

(١) إسمـاعيل راجى الفاروقى، أصـول الصهيـونية فى الدين اليهـودى، مكتبة وهبـة القاهرة، ط٢، ١٩٨٨، ص: ٦٣، ٦٤.

الخاتمـــة

مما لا شك فيه أن قضية القدس قد شغلت الكثيرين من الباحثين، المسلمين واليهود على السواء، ولقد جاءت هذه الدراسة لتضيف ما نحسبه جديدًا وهو استقراء نصوص العهد القديم المقدسة، واستخراج ما تعالجه من قضايا مختلفة ذات علاقة وطيدة بالمدينة.

قدمت لنا النصوص العبرية أسماءً وصفات عديدة للمدينة، فهى أورشليم ويبوس والقدس ومدينة الله ومدينة داود، وسافكة الدماء ومدينة الدماء ونجسة الاسم...

وكان من المثير للانتباه أن أسماء المدينة الشهيرة: أورشليم ويبوس والقدس، ليست أسماءً عبرية على الإطلاق.

ولقد أشارت النصوص العبرية إلى قدم وجود المدينة قبل ظهور العبريين على خارطةِ أرض كنعان، وكان سكانها يبوسيين كنعانيين عرب، لم ينقطع تواجدهم على مر التاريخ، حتى عندما تمكن الإسرائيليون منها لم يتمكنوا من طرد سكانها الأصليين، كما أكد سفر حزقيال على الأصل الكنعانى للمدينة، وأشارت الوثائق التاريخية المصرية وغيرها إلى حداثة الوجود الإسرائيلى إذا قيس بالوجود الكنعانى فيها.

وأثبتت النصوص العبرية موقف إله إسرائيل المتناقض تجاه المدينة، إذ لم تذكر إلا لمامًا فى الأسفار الخمسة، ولم تكن لها أية قداسة فى حياة إبراهيم أو موسى أو يشوع والقضاة.

والموقف الإلهى اليهوى من أورشليم القدس يميل إلى السلبية بوجه

عام، إلى أن اختارها داود كعاصمة له ونقل إلـيها تابوت العهد، ليتحول الاختيار الداوودى للمدينة إلى اختيار ربانى.

ولما لم يكن لإله إسرائيل منذ بداية علاقته بشـعبه بيت «يسكن» فـيه ويستقر بعد ترحاله وتجواله، فقد فكر داود فى بناء بيت للرب، إلا أن إله إسرائيل، وإن كان قـد قبل من حيث المبدأ عمليـة تسكينه، فقد رفض أن يكون البناء على يدى داود الملطخة بالدماء.

ويبنى سليمـان بيت الرب فى المدينة المختارة، تـلك المدينة التى تغزل فيها الرب أحيانًا، وصب عليها لعناته وجام غضبه أحيانًا أخرى.

بل إن الرب قد سـمح بتدميـر أورشليم وتخريب بيتـه وسبى شعـبه، عقابًا على ما اقترفـته المدينة وأهلها من آثام وذنوب، وما دار بين ربوعها من مظاهر الشرك والعصيان.

والمتتبع للنصوص يجد أن الرب قد أعلن إشعال نار غضبه الأبدى على أورشليم (إرميا ١٧/ ٤)، لكننا لا نلبث أن نجـد من النصوص ما يخالف ذلك، الأمر الذى يجعلنا نرجح أن نصوص العـشق لأورشليم واختيارها وتقديسها إنما قد كتبت من قبل جماعة تختلف تمامًا عن النصوص المضادة لها، ولعل الأولى جـاءت من قبل مملكة يهوذا - معـقل داود وسليمان، والثانيـة من قبل مملكة إسـرائيل، التى يشهـد تاريخها بتـدنيس أورشليم والنفور منها.

ومن جانب آخر، تشير الدلائل النصية إلى «خصوصية» هيكل سليمان وصغـر حجمـه، بل ومساهمـة الأغيار الرئيـسة فى بنائه، وكـيف تذكر النصوص أنه لم يكن الهيكل السليمـانى الوحيد الذى بناه الملك سليمان،

إذ إنه فى محاولاته لاستمالة نسائه وإرضائهن، بنى مذابح وبيوتًا لسائر الآلهة.

ولقد اشترط الرب لإقامته فى هذا الهيكل اتباع سليمان لطريق داود أبيه، الطريق المستقيم، لكن العهد القديم يخبرنا أن سليمان لم يكن قلبه كاملاً مع الرب، ونستنتج من هذا أن الرب لم يكن قد سكن فى هيكله فى زمن سليمان.

كما اشترط إله إسرائيل لسكناه كذلك، أن يستقيم شعبه وألا يسيروا وراء آلهة الأمم الأخرى، وإلا فلا سكنى له ولا استقرار فى هذا البيت.

وسفرا الملوك يثبتان - لمن يؤمن بهذا الكتاب - أن بنى إسرائيل لم يعبدوا الرب حق عبادته خلال تاريخهم الكتابى كله سوى فى فترات زمنية محدودة للغاية، وذلك يعنى عدم وجود الرب فى الهيكل.

ولما كان الهيكل لا يحظى بالتقديس فى عهد سليمان بانيه، لم يكن لنا أن نتوقع أن يحافظ الحلف المتصارع على الهيكل أو حتى يوجهون له أدنى قداسة، فمنع الإسرائيليون الشماليون من التوجه إليهم، بل وبنى لهم حكامهم هياكل منافسة فى إطار عملية سياسية خالصة لا علاقة لها بالرب أو العقيدة.

وفى غمرة الانحراف الإسرائيلى يشن نبوخذنصر البابلى حملة ضارية ويحاصر أورشليم ويهدم الهيكل ويحرق المدينة وينهب كل ما تمكن منه، ويقوم بأسر معظم اليهود إلى بابل، لتدور الدائرة على البابليين، ويمكن الملك الفارسى اليهود من العودة، ويعينهم فى بناء الهيكل مرة ثانية، وإن حدثت تغييرات معمارية بالطبع فى الهيكل الجديد من حيث اتساع مساحته

واختلاف مواد بنائه، وهذا ما يتضح جليًا من مقارنة نصوص بناء الهيكل الأول فى سفر الملوك، ونصوص بناء الهيكل الثانى فى سفر عزرا.

وجدير بالذكر أن كثيرًا من اليهود المنفيين فى بابل قد فضلوا البقاء فى المقـر الجديد ولم يفكـروا فى العودة إلى أورشليـم، ولو كان للمـدينة أو للهيكل قداسة ومكانة ما تأخروا فى العودة إليهما.

وتتوالى الأمم والشـعوب الغازية لأورشليم، وتخرب المدينة أكـثر من مرة، ويهدم الهـيكل مرة ثانية فى عهد تيتـوس الرومانى، ثم تمحى بعده بعدة عقود مـعالم هذا البيت ويقام مكانه معبـد لإله رومانى وثنى وليمنع اليهود من العيش فى أورشليم، بل وتم تغيير اسمها إلى إيليا كابيتولينا.

وما زال الاعتقاد بأن جدارًا سليـمانيًا باقيًا منذ ثلاثة آلاف عام، يبكى إلى جواره اليـهود، مع أن البحث والتنقـيب والتحليل لما تم اكتشـافه لا يشير إلى وجود أثر يهودى للهيكل أو غـيره من مخلفات اليهود، إذ كان وجودهـم فى أورشليم ككريات ثلج مسـائية، مـا لبث أن ذابت عنـدما انبلج الصبح وأشرقت الشمس بأنوارها.

فهل يستمر اليهود فى البكاء على الحائط؟!

لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تغير الأساطير حقائق التاريخ مهما طال البكاء وارتفع الصياح.

أما عن الصـخرة المقدسـة فقد كـانت كذلك محـل «أسطرة» من قبل الخيال اليهودى على مر التاريخ، فـزعموا أنها هى صخرة المسجد، مع أن التلمود يصف لنا صخرة أخرى، لا يمكن أن تقاوم غزوات بابل واليونان

والرومان والصليبيين وغيرهم.

ولم تكن مكانة أورشليم عند آباء إسرائيل وملوكهم بأفضل من مكانتها عند إله إسرائيل نفسه، لقد كانت أورشليم محل اعتداء وتخريب وسلب ونهب من قبل الإسرائيليين أنفسهم، كما كانت محل شرك وكفر وفسوق، ناهيك عن التآمر والقتل وسفك الدماء بين أسوارها وخلف أبوابها.

منذ أن دخل بنو إسرائيل أورشليم، وإبان أزهى عصورها فى زمن داود وسليمان، ثم خلال حكم ورثة سليمان، لم تشهد تقديسًا أو احترامًا أو تقديرًا إلا لفترات محدودة للغاية، وكانت محل كل سوء وشر، بل إن داود وسليمان لم يزعما القداسة للمدينة على الإطلاق، وكل ما كان فى عصرهما هو ازدهار أورشليم كعاصمة سياسية، أخذت طابعًا دينيًا بنقل تابوت العهد فى زمن داود، ثم ببناء الهيكل السليمانى «الخاص» به.

أما أثناء النفى البابلى، فقد أصبحت أورشليم رمزًا لملك قد ضاع، ووطن قد دمر، ومن ثم بدأ الفكر الدينى اليهودى ينسج خيوطًا مقدسة أحاطت بأورشليم، لكنها خيوط واهية للغاية، إذ إنها من صنع مجموعة من البشر، كانت دوافعهم «وظيفية» أكثر منها «إيمانية».

تحولت أورشليم وتحول معها الهيكل إلى أساس إيمانى عقدى، وأصبح المرء لا يكون يهوديًا كامل اليهودية إلا فى أورشليم، بل أصبحت أورشليم ذاتها بديلاً عن الإيمان، فمن عاش فيها لم يمرض، ومن سكنها غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

إن الفكر الأسطورى الذى لازم الوجود اليهودى على مسرح التاريخ،

لم يكن ليتـرك أورشليم ولا هيكلها، فالاتجاه الأسطورى اليهودى الذى تتضح معـالمه منذ بداية خلق الكون، واستمـر مع هؤلاء القوم فى حلهم وترحالهم، قد تضخم بفعل الأحداث المصاحـبة، ليبلغ ذروته فيما يتعلق بأورشليم القدس.

بعـد هذه النتائج التى خلصنا إلـيها مـن إعادة قراءة نـصوص العـهد القـديم، نحن - العـرب والمسلمون - بـحاجـة ماسـة إلى «إعـادة خلق أورشليم» القديمة، بحاجة إلى إعادة كـتابة تاريخها، لا وفق وجهة النظر الإسلاميـة، فهذه لا تلزم أحـدًا سوانا، ولكن وفق وجهة النظر اليـهودية العبرية التى تجسدها النصوص المقدسة التى بين أيدينا.

علينا أن نتـيح للعالم كله أن يـقرأ النصـوص كما هـى، من واقعـها التجميـعى، بحيث لا يكتفى البعض بعبارات المديح والتمـجيد للمدينة، ويغض الطرف عن سائر العبارات.

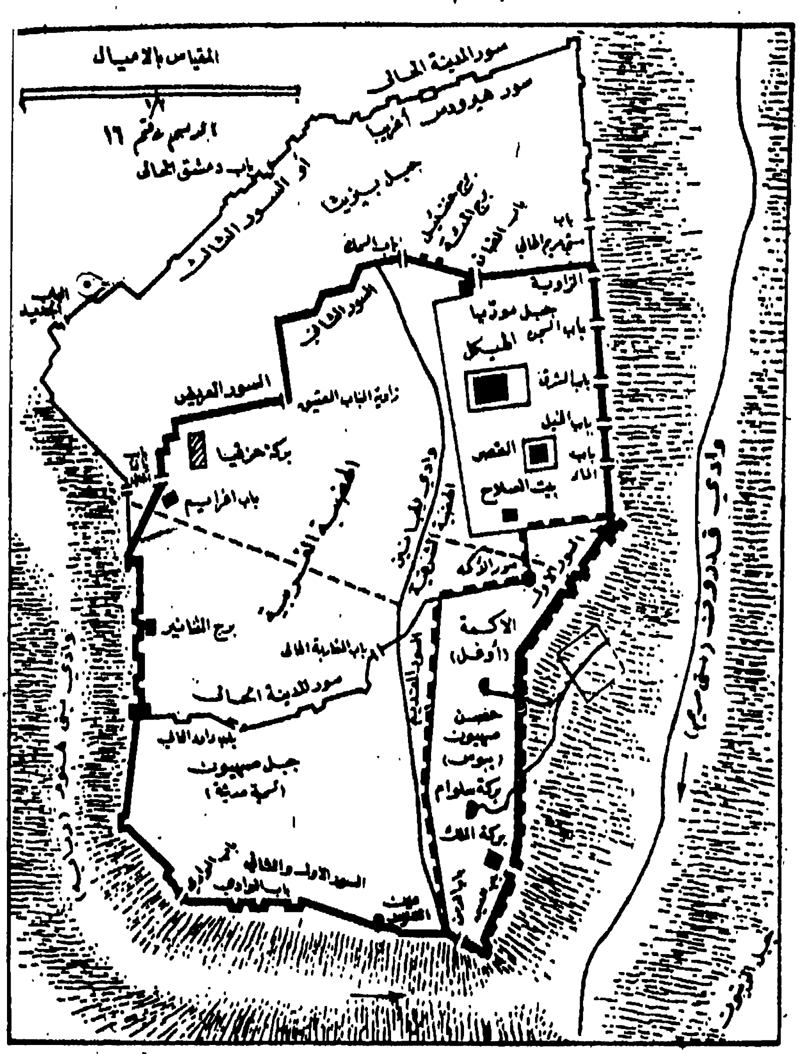
علينا أن نـقـول للعـالم كـله: هذه هى أورشليم القـــدس، هذا هو تاريخها، هذا هو هيكلها، وتلك هى مكانتها عند المتشدقين بقداستها فى العصر الحديث.

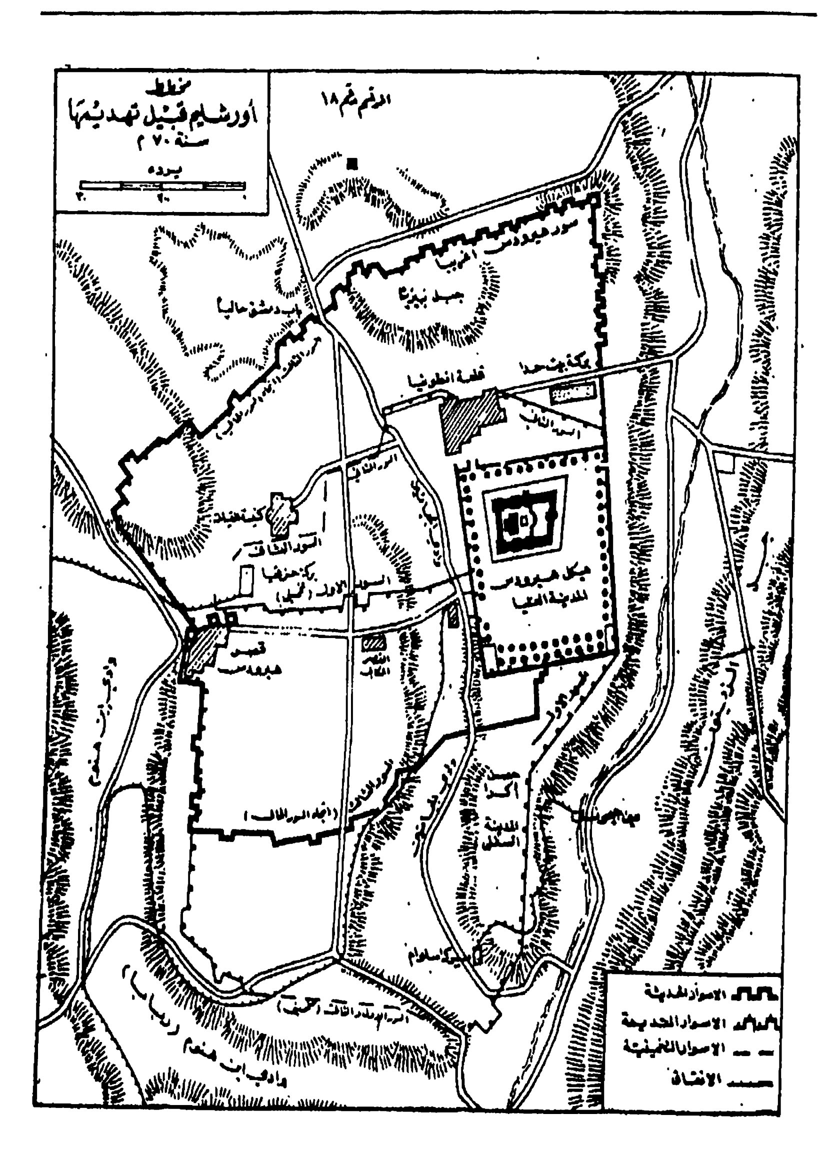
وحتى هذا الحين، علينا أن نهيئ أنفسنا لفهم ما لنا من تاريخ، وما لنا من حقوق، والعاقبة للفاهمين.

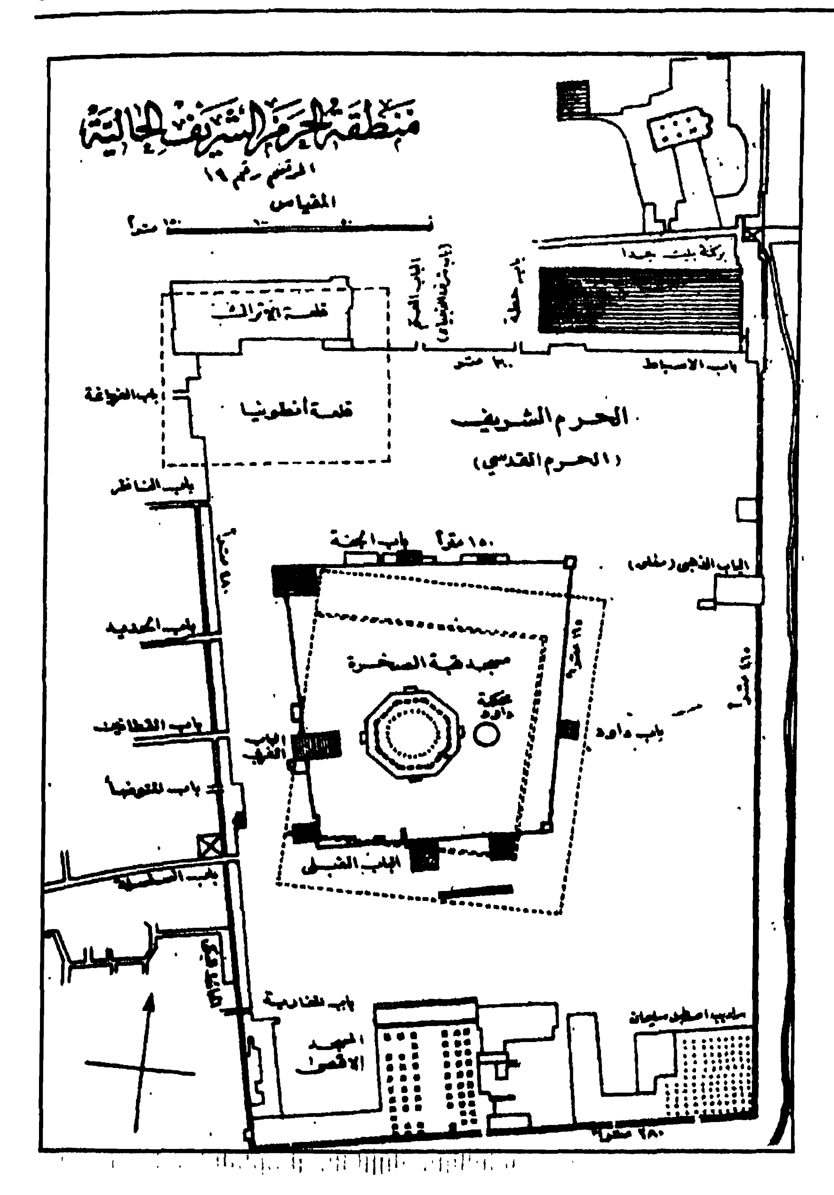
* * *

قائمة بخرائط القدس

مخطط أورشليم في أقدم عصورها




مخطط
أورشليم قبيل تهديمها
سنة ٧٠ م
الرقم ١٨
قلعة انطونيا
بركة بيت حسدا
هيكل هيرودس
المدينة العليا
قصر هيرودس
بركة حزقيا
المدينة السفلى
بركة سلوام
الأسوار القديمة
الأسوار الحديثة
الأسوار التخمينية
الأنفاق


منطقة الحرم الشريف الحالية
المقياس
الحرم الشريف
(الحرم القدسي)
قلعة أنطونيا
مسجد قبة الصخرة
باب الأسباط
باب داود
الباب الشرقي
الباب القبلي
باب الجنة
باب الناظر
باب الحديد
باب المغاربة
المسجد الأقصى

موجز تاريخ أورشليم القدس

موجز تاريخ أورشليم القدس (*)

٣٠٠٠ ق. م	● أقيمت أورشليم على هضبة تعلو نبع جيحون
٢٠٠٠ ق. م	● ذكرت أورشليم لأول مرة باسمها هذا فى النصوص المصرية، وتشير أسماء حكامها إلى أصولهم السامية.
١٨٠٠ ق. م	● ذكرت مرة أخرى فى نصوص مصرية رسمية تعرف بنصوص اللغة، وكان لها حاكم واحد من أصل سامى.
١٧٥٠ ق. م	● ظهور إبراهيم (عليه السلام) وقصة الذبيح، وتسمى هذه الفترة عند اليهود بعصر الآباء.
١٢٣٠ ق. م	● حروب يوشع بن نون فى أرض كنعان (فلسطين).

* * *

(*) التواريخ هنا معظمها تقريبى ومأخوذة عن:

مئير بن دوف، الإنسان والحجر فى أورشليم، تل أبيب: ١٩٨٩، ص ٢٧٦ - ٢٧٨، موشى ميلنر ويهودا سوليمون، أورشليم، إصدارات أفيفيم، إسرائيل، ص ١٦، ١٧.

فترة الهيكل الأول (فى التاريخ اليهودى)

١٠٠٤- ٩٦٥ ق.م	• مملكة داود الموحدة.
٩٩٧ ق. م	• احتلال داود لأورشليم المدينة اليبوسية الكنعانية وجعلها عاصمة لمملكته.
٩٦٦ ق. م	• شراء داود لبيدر أرونة اليبوسى وبناء مذبح للرب فيه.
٩٦٥ - ٩٢٨ ق. م	• مملكة سليمان فى القدس وبناء الهيكل وقصر سليمان.
٩٢٨ ق. م	• رحبعام بن سليمان يعتلى عرش يهوذا وإسرائيل.
٩٢٣ ق. م	• انقسام المملكة إلى مملكتين: يهوذا وعاصمتها أورشليم جنوبًا، إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) شمالاً.
٧٠١ ق. م	• سنحاريب ملك آشور يحاصر أورشليم.
٥٩٨ ق. م	• نبوخذنصر - ملك بابل - يحاصر أورشليم ويأخذ ملكها يهوياكين وبعض يهودها إلى بابل.
٥٨٦ ق. م	• نبوخذنصر يحاصر أورشليم مرة ثانية

ويحتلها ويحرقها ويدمر الهيكل (التدمير الأول).

٥٣٧ ق. م	● كورش الملك الفارسى يتغلب على بابل، ويعلن عودة اليهود إلى أورشليم.

فترة الهيكل الثانى (فى التاريخ اليهودى)

٥١٥ ق. م	● إتمام المرحلة الأولى من إعادة بناء الهيكل المدمر.
٤٤٠ ق. م	● عودة النبى نحميا من فارس إلى أورشليم وإعادة بناء أسوار أورشليم وأبوابها المتهدمة.
٤٣٥ ق. م	● النبى عزرا يعاون نحميا فى مهمته من الناحية الروحية.
٣٣٢ ق. م	● احتلال الإسكندر الأكبر لأورشليم.
٢٠٢ ق. م	● احتلال القائد البطلمى المصرى سكوباس لأورشليم.
١٩٨ ق. م	● أنطيوخوس الثالث يحتل أورشليم ويعاون اليهود فى إعمار الهيكل.

١٦٩ ق. م	● أنطيوخوس الرابع «أفياتوس» يدخل أورشليم، وينهب محتويات الهيكل.
١٦٤ ق. م	● يهودا المكابى يحتل أورشليم ويطهر الهيكل ويعيد تدشينه.
١٦٤ - ٣٧ ق. م	● مملكة الحشمونيين.
١٦١ ق. م	● بمحيدس - القائد العسكرى اليونانى السورى - يحتل أورشليم من اليهود.
١٥٢ ق. م	● عودة يهوناثان الحشمونى أصغر أبناء منياهو إلى أورشليم وتحصين جبل البيت.
١٤١ ق. م	● احتلال شمعون المكابى للقلعة فى أورشليم وتأمين جبل البيت.
٦٣ ق. م	● فومبيوس يحتل أورشليم وجبل البيت، وبداية الحكم الرومانى.
٤٠ - ٣٧ ق. م	● حدوث اضطرابات فى روما، واستقلال اليهودى منياهو أنطيوجونوس بأورشليم.
٣٨ ق. م	● عودة روما إلى قوتها واحتلالها لأورشليم مرة أخرى.
٣٧ - ٤ ق. م	● هورودس يسيطر على أورشليم تحت حماية

قيـاصرة روما، وتوسيع جـبل البيت وبناية القصر والقلعة الجديدة.

٣٤ م	● محاولة صلب المسيح وقتله.
٤١ - ٤٤ م	● سيطرة أجرنيوس الأول على أورشليم وإقامة السور الثالث.
٦٦ - ٧٠ م	● ثورة اليهود الكبرى مع الرومان.
٧٠ م	● سقـوط أورشليم فى أيدى الرومان وتدمـير الهـيكل تمامًـا فى التـاسع من أغـسطس، وإجـلاء اليـهـود تمامًا مـن المدينة، وسلب محتويات الهيكل.

إيليا كابيتولينا

١٣٢ - ١٣٥ م	● ثورة باركوكبا ضد الرومان.
١٣٥ م	● القيـصر الرومـانى هدريانوس يبنى أورشليم كمـدينة رومانـية ويغـير اسمـها إلى إيلـيا كابيتولينا، ويؤسس معبدًا للإله جوبتر مكان الهيكل، ويحظر على اليهود دخول المدينة.

* * *

الفترة البيزنطية

٣٢٣ م	● القيصر الرومانى قسطنطينوس وأمه هيلانا يبنيان كنيسة: الصلب والقبر والبعث وكنيسة القيامة على جبل الزيتون، بناء السور مجدداً حول جبل صهيون.
٣٦١ - ٣٦٣ م	● القيصر الرومانى يوليانوس يسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم
٦١٤ - ٦٢٩ م	● الاحتلال الفارسى لأورشليم.
٦٢٩ - ٦٣٨ م	● الاحتلال البيزنطى لأورشليم.

الفترة العربية الأولى

٦٣٨ م	● الفتح الإسلامى لأورشليم واستلام الخليفة عمر بن الخطاب لمفتاح المدينة.
٦٩١ م	● تأسيس مسجد قبة الصخرة فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، وعودة اليهود إلى السكنى فى أورشليم.
٧٥٠ - ٩٦٩ م	● أورشليم تحت حكم الأمويين.
٩٦٩ - ١٠٧١ م	● أورشليم تحت حكم العباسيين.

١٠٧٨ م	• أورشليم تحت حكم السلاجقة الأتراك.
١٠٩٦ م	• أورشليم تحت حكم المصريين.

الفترة الصليبية الأولى

١٠٩٩ م	• الاحتلال الصليبى لأورشليم والمذابح التى وقعت بالمسلمين واليهود وحظر عودة اليهود إلى المدينة.

الفترة الأيوبية

١١٨٧ م	• صلاح الدين يسترد أورشليم، ويسمح لليهود بالعودة إلى أورشليم.
١٢٢٩م - ١٢٤٤م	• الفترة الصليبية الثانية حيث بقى جبل البيت فقط فى أيدى المسلمين مع سماح المسلمين لغيرهم بزيارة الأماكن المقدسة.
١٢٦٠م	• احتلال التتار لأورشليم وتدميرها.

الفترة المملوكية

١٢٦٧م	• الحكم المملوكى وعودة الاستيطان اليهودى

في أورشليم.

١٤٠٠م	● بداية الاستيطان في الحي اليهودي من أورشليم.
١٤٨٨م	● احتلال المنغوليين للمدينة لفترة محدودة وتدميرها.

الفترة العثمانية

١٥١٧م	● الفتح التركي للمدينة على يدي السلطان سليم الأول.
١٥٣٦ - ١٥٣٩م	● السلطان سليمان القانوني يبني سور أورشليم وأبوابها، وتشجيع اليهود على السكنى في المدينة.
١٨٥٤م	● بداية البناء خارج أسوار أورشليم.
١٨٧٧م	● تأسيس بلدية أورشليم.
١٨٩٢م	● تدشين خط سكة حديد يافا - أورشليم.
١٨٩٨م	● زيارة هرتزل لأورشليم.
١٩١٤ - ١٩١٧م	● الحرب العالمية الأولى.

* * *

فترة الانتداب البريطانى

١٩١٨م	● خضوع أورشليم للجيش البريطانى بقيادة اللنبى.
١٩٢٥ - ١٩٣٨م	● إقامة العديد من المؤسسات اليهودية مثل: الجامعة العبرية، ومستشفى هواسا وغيرها.
١٩٤٧م	● الأمم المتحدة تعلن إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين وتقسيم البلاد إلى دولتين: يهودية وعربية، وتدويل أورشليم.
١٩٤٨م	● الحرب بين العرب وإسرائيل.

الفترة الإسرائيلية

١٩٤٩م	● إعلان أورشليم عاصمة لإسرائيل.
١٩٦٧م	● احتلال إسرائيل للقدس العربية إثر حرب حزيران/ يونيو وإعلان توحيد المدينة من قبل إسرائيل.

والتاريخ لم ينته بعد.

* * *

قائمة بملوك يهوذا
فى أورشليم
بعد موت سليمان وحتى النفى البابلى

قائمة بملوك يهوذا فى أورشليم بعد موت سليمان وحتى النفى البابلى (*)

١ - رحبعام بن سليمان	٩٣٣ - ٩١٧ ق. م
٢ - أبيام بن رحبعام	٩١٧ - ٩١٥ ق. م
٣ - آسا بن أبيام	٩١٥ - ٨٧٥ ق. م
٤ - يهوشافاط بن آسا	٨٧٥ - ٨٥١ ق. م
٥ - يهورام (يورام) بن يهوشافاط	٨٥١ - ٨٤٤ ق. م
٦ - أحازيا بن يهورام	٨٤٤ - ٨٤٣ ق. م
٧ - عثاليا (أم أحازيا)	٨٤٣ - ٨٣٧ ق. م
٨ - يهواش (يوآش) بن أحازيا	٨٣٧ - ٧٩٨ ق. م
٩ - أمصيا بن يوآش	٧٩٨ - ٧٨٠ ق. م
١٠ - عزريا بن أمصيا	٧٨٠ - ٧٤٠ ق. م
١١ - يوثام بن عزريا	٧٤٠ - ٧٣٥ ق. م
١٢ - آحاز بن يوثام	٧٣٥ - ٧٢٠ ق. م.

(*) محمد خليفة حسن، مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم، د. ن، القاهرة، ١٩٩٦، ص: ٨٠ - ٨١.

١٣ - حزقيا بن آحاز	٧٢٠ - ٦٩٢ ق. م
١٤ - منسى بن حزقيا	٦٩٢ - ٦٣٩ ق. م
١٥ - يوشيا بن منسى	٦٣٩ - ٦٠٩ ق. م
١٦ - يهو آحاز بن يوشيا	٦٠٩ ق. م
١٧ - يهوياقيم بن يوشيا	٦٠٩ - ٥٩٨ ق. م
١٨ - يهوياكين بن يهوياقيم (ثلاثة شهور)	٥٩٨ - ٥٩٧ ق. م
١٩ - صدقيا بن يوشيا	٥٩٧ - ٥٨٦ ق. م

* * *

المصادر والمراجع

أولاً - العربيــــة :

• أحمد سوسة:

- العرب واليهود فى التاريخ، العـربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د.ت.
- حضـارة وادى الرافدين بين الساميين والسومـريين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العـراقية، سلسلة دراسات (٢١٤)، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.

• أحمد عبد الغفور عطار:

- عروبة فلسطين والقدس، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٤.

• إسرائيل ولفنسون:

- تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٩.

• إسماعيل راجى الفاروقى:

- أصول الصـهيونية فى الدير اليـهودى، مكتبة وهبـة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨.

• أمنون كوهين:

- القدس: دراسات فى تـاريخ المدينة، ترجمة سلمان مـصالحة، القدس، ١٩٩٠.

• جودت السعد:

- أوهام التـاريخ اليهـودى، الأهليـة للنشر والتـوزيع، عمـان، ١٩٩٨.

● **حسن ظاظا وآخرون:**

- الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة، ١٩٧١.
- أبحاث فى الفكر اليهودى، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.

● **حسين جميل:**

- بطلان الأسس التى أقيم عليها وجود إسرائيل على الأرض العربية، وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة الإعلامية (٢)، بغداد، ١٩٦٨.

● **حسين حمادة:**

- آثار فلسطين، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٧.

● **خالد محمد غازى:**

- القدس: سيرة ذاتية، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ١٩٩٨.

● **روجيه جارودى:**

- فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار التراث ، د.ت.

● **سبتينو موسكاتى:**

- الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، د.ت.

● **ستيفن رنسيمان:**

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد البازى العرينى، بيروت، ط١، ١٩٦٧.

● **سيد فرج راشد:**

- القدس: عربية وإسلامية، د.ن، ط٢، ١٩٩٥.

● **شفيق مقار:**

- المسيحية والتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩٢.

● **طه باقر:**

- مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، جـ٢.

● **ظفر الإسلام خان:**

- تاريخ فلسطين القديم، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.

● **عبد الحميد زايد:**

- مصر الخالدة، القاهرة، ١٩٦٦.
- القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (١٩٧) القاهرة، ٢٠٠٠.

● **فرانسيس داندس (إعداد):**

- تفسير الكتاب المقدس، دار منشورات النفير، بيروت، ١٩٦٦.

● **فؤاد حسنين على:**

- فلسطين العربية، القاهرة، ١٩٧٣.

● **فيصل صالح الخيرى:**

- القدس: الآثار تنسف الأساطير، مقال فى «صحيفة الأسبوع»، القاهرة ٤/٩/٢٠٠٠.

• كارين أرمسترونج:

- القـدس: مدينة واحـدة، ثلاث عقائـد، ترجمـة فاطمة نـصر ومحمد عنانى، سطور، القاهرة، ١٩٩٨.

• متى المسكين:

- تاريخ بنى إسرائيل، وادى النطرون، القاهرة، ١٩٩٧.

• محمد صبيح:

- القدس ومعاركنا الكبرى، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١.

• موفق محادين:

- دورة الدين اليهودى، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧.

• هابيل فهمى عبد الملك:

- أورشليم القـدس منـذ أقـدم العـصـور وحـتى بداية العـصـر الرومـانى: دراسـة تاريخـية وثائـقيـة» فى: القـدس التـاريخ والمستـقبل، أبحـاث الندوة الدولية للقـدس، مركـز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط ٢٩ - ٣٠ من أكتوبر ١٩٩٦، تحرير: محمد إبراهيم منصور، جامعة أسيوط ١٩٩٧.

* * *

ثانيًا - العبريـة:

• إشعياهو ليفوفيتس:

- اليـهودية، الشـعب اليهـودى، ودولة إسـرائيل، أورشليم وتل أبيب، ١٩٧٩.

• دائرة المعارف المقرائية (الكتابية):

- إصدارات مؤسسة بيالك، القدس، ١٩٥٨.

• مائير بن دوف:

- الإنسان والحجر فى أورشليم، تل أبيب، ١٩٨٩.

• موشى برلمان وتيدى كوليك:

- أورشليم، حيفا، ١٩٧٧.

- وحدة المناهج الدراسية بوزارة التعليم والثقافة الإسرائيلية (إعداد)، دروس فى التاريخ للمدارس الحكومية، ط١، بدون تاريخ.

• يوحنان إهارونى:

- أرض إسرائيل فى زمن العهد القديم: جغرافيا تاريخية، ١٩٨٨.

ثالثا - الإنجليزية:

Demetri Baramaki,

"From Ancient Times to the Begenning of Muslim Era" in: Jerusalem, the Key to World Peace, Islamie Council of Eurpse, London, 1980.

Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, 1973.

Luke, H., & Keith Roach,

Handbook of Palestine and Trans - Jordan, 3rd. ed., Macmillan, & Co. Ltd., London, 1934.

Paul Johnson,

A History of the Jews, New York, Harper & Row, 1988.

فهرس الكتاب